أوراق حلاق..

بقلم

هشام عيد

أوراق حلاق..

بطاقة الكتاب:
اسم الكتاب: أوراق حلاق
اسم الكاتب: هشام عيد
نوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: ١٣٩ صفحة
المقاس: ١٤ x ٢٠
رقم إيداع: ٢٠٢٠/٢١٢٣٦م
الترقيم الدولي: 978-977-6736-15-3
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٠م

رئيس مجلس الإدارة
مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة
فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشرعدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية، كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما

أوراق حلاق..

بقلم

هشام عيد

شكر خاص للأستاذ رزق المزعنن

فريق عمل
دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف **إسلام عبدالحليم**

التنسيق الداخلي **مها المقداد**

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com

إهداء

إلى حنان..
أنشودة العشق والتضحية
وهيام التي أعطت كل شيء..
إلى الطفل حسن.. الذي استمع بعفوية طفل وقلب كبير،
إلى أحمد ومريم.. اللذين مسحا كل مرارة الأيام بلمحة،
إلى كل المعذبين بين ما هم فيه وما تمنوا أن يكونوه..
إلى رفيق الأوراق، عادل عبد الرازق،
إلى الرفيقتين: رقية وشهيرة،
إلى الأسطى جمال والأسطى محمود،
الأسطورة.

"استفتاح"

استغرقت هذه الأوراق عشرات الرؤوس.
لم يكن معظمها متألقًا بليغًا بقدر ما كان حقيقيًا.
لم يكن راقيًا ساميًا، لكنه كان يعيش لحظته بصدق..
كانت حياة.
فيما عدا "عماد عفت"؛ فإن كل ما فيها لا يمت للواقع بصلة،
اللهم إلا أن يُتخذ القالبُ نواة لبدء حكاية. لذلك، أي تشابه
بينها وبين الواقع هو محض افتراء..
ربما كان الواقع أسوأ.
أما ما هي.. قصة، رواية، فهذا سؤال ثقيل على نفسي.
إنها مجرد أوراق.

أوراق حلّاق.

الطـفــل

دخل به أبوه. لم يُلْق حتى التحية. وضعه كقطعة على الكرسي.
قال مسددًا أمره بلهجة حاسمة: "خِف له شعره".
فوجئ الطفل أنه في محل الحلّاق، صُدِمَ تمامًا، زمَّ شفتيه ونظر إلى أبيه بوَجَل.
لقد "كشَّر" هذا الأب طويلًا حتى صارت "التكشيرة" وسْمًا لا يغيب عن وجهه.
كانت ملامح الطفل الذي لم يتجاوز السادسة صمَّاءَ كالزجاج، كالأصنام تنظر بغير معنى.. أوشك أن يبكي من الفوطة والمقص والخوف مما يفعل الحلّاق. تململ مترددًا.
سدّد الأب نظرة قوية وقال بحسم: "بَس"، فتوقفت محاولة البكاء.
وقف فوق رأسي وأنا أحلق، يتابع المشط وضربات المقص ويسيطر على الحياة. تذكرت قهري يوم "بُلت على نفسي" لمجرد مرور مدرس اللغة العربية في الفسحة، ملأني الذعر، رغم أنها فسحة. الأستاذ محمد عيش كان يؤمن أن الرعب هو الوسيلة المثلى لتقييد الطفل؛ يتجمَّد، لقّنْه بعدها ما شئت. نظرته تشلّ وعصاه تبقى في الذاكرة إلى الأبد.. نفس نظرة هذا الأب.. كنت أكبر من هذا الطفل بقليل.
استأنفت الحلاقة المهزومة مع بكاء الطفل المكتوم الذي احتبس في نفسه فتفجرت به ملامح وجهه وانتفخت عيناه. أُفَضّل أن أحلق لطفل يبكي، رغم خطورة تحركاته المفاجئة، عن طفل ساكن مرتعب "متربي ع النظرة"، والأهم من ذلك أن يكون خاليًا من الأخطاء.
لماذا لا يتركه يبكي فقط؟ لماذا يعاملني كأننا نلتقي

للمرة الأولى؟ عندما يأتي وحده يكون شخصًا آخر، مملًا أيضًا، لكن أقل سُمكًا.
سألني: "إنت بتعقّم العدة؟".
هذا السؤال يعني ببساطة "هل أنت قذر!".
كنت زاهدًا في الحديث معه وأكره وقوفه فوق رأسي مع كل ضربة مقص، أجبت مقتضبًا:
"طبعًا يا أستاذ ناجي".
حدثني حديثًا مملًا عن الأمراض المعدية والكبد الوبائي و.. و.. انطلق في حديث يعرف كل تفاصيله ويمتعه التحدث فيه. احتل أذنيّ، شعرت أنه يركبني ويدور بي.. طال حديثه قذارةَ معظم الحلّاقين.
رتابة كلماته المتتابعة وصوته الجاد كانا شادّين مع صوت ضربات المقص والدمع المكتوم. إذا تحرك الطفل زَجَرَه وإذا جفلت عيناه نَهَرَه وإذا تَمَلمَل في جلسته سدَّد إليه نظرة كأنها مسمار يثبته في الحال..
قررت أن أذهب برأسي بعيدًا خشية الصدام الموشك، هربت كما هربت زوجته الأولى بعد أن "طفحت المرار" في عشرته، عاقبها بالحرمان من ابنها، هذا المقهور الذي يتوقف عن البكاء بأمر.
تَذكَّرت صاحبي مدرس اللغة الإنجليزية الذي فُصِلَ من العمل بالتدريس، كان منهجه قائمًا على التعليم من خلال اللعب، كان يقصّ عليّ وفي عينيه لمعة شوق كيف أن الأطفال يغنون أغاني إنجليزية مطولة في كورس متناغم مذهل وصوت موحد كأصوات الملائكة والمنشدين الصغار في الكنائس، لا يهم ماذا يفعلون بأجسادهم، يتمايلون ويرقصون ويعبِّر كلٌ بطريقته عن نشوته أثناء الإنشاد، يذهب بهم الوجدُ حيث يريد، يترنحون كالدوّامة ويطوِّحون أيديهم ورؤوسَهم

وهم يرددون الأغنية التي تروي صراعًا بين القرود الصغيرة والتمساح

Three little monkeys are sitting on a tree.
Teasing Mr. Crocodile one two three.

دخل الناظر.. وَجَدَهم متناثرين، معظمهم فوق "الديسكات". هُنَيهة من التردد عطَّلت أصواتهم ثمَّ حثَّتهم عينا المدرس على التمادي فانطلقوا في عينيه، وَحَّدَهُم في لحن بهيج، لم يشأ أن يتوقف النغم ظنًا منه أنه سيشترك ولو بنظرة تشجيع. لكنه سدَّد تلك النظرة الناظرية التي تهز المدارس. ارتبك الأطفال قليلًا، لكن نظرته صارت ساذجة أمام فيض البهجة والأمل الهادر في عين الأستاذ.. ظلت التلاميذ ترقص وتغني وتهزُّ أياديها بغير انتظام، ولكن بمرح.

The naughty little monkeys
are shouting from the tree.

جمع أوراقه وما زالت نظرته الملهمة تحثهم على الغناء.. تجاهل الناظر واتجه نحو الباب والقرود تهزأ من التمساح.. نظرة "عيش" لم تعد تخيفهم..

Boo Mr. Crocodille,
You can’t catch me.

أُقصِيَ عن مهنة التدريس وصار لسنوات عاطلًا بلا عمل ثمَّ تقاذفته الحياة في مهنٍ مختلفة.. كان فاترًا فيهن جميعًا...

ما زال يتابعني ويسدد ذات النظرة الجافة الحاسمة على ابنه وعليّ، ويزحم المحل بأكمله والغيظ يملؤني.

لو لم تكن هذه الحلاقة انتهت للكمته، هو والناظر معًا. أعرف هذه السطوة الزائفة.. قشرة الثلج التي تحوي تحتها الخيبة والوهن..

أنت ناظرٌ آخر بيدك عصا وسُلطة جائرة.
لم يعد الطفل يريد البكاء.
"غَيِّر الموس، لا تستعمله ع القفا.. دَرَّج بالماكينة".
سألته: "حلوة يا حبيبي؟".
لم يرد، ولم يكن في عينيه رد..
"اسمك إيه؟".
"لؤي ناجي جلال". قالها كالآلة.. كان سعيدًا أن الحلاقة انتهت.
دار حول رأس الطفل .. وحول رقبتي:
- الحتة دى، هنا، هنا.
انتهت الحلاقة.. دفع ثلاثة جنيهات.
حمل الطفل – الشيء– وذهب.. تابعتهما...
هذا أول صغير لا ينظر حوله وهو يمشي.

*****

بعد عشرين عامًا، حين تلقيه المهنُ المختلفةُ مندوبًا بائسًا يستقبل الوافدين في المطار بلوحة عليها أسماؤهم، سوف يتذكر وهو واقف يصارع التعب ويريح قدمًا ليقف بأخرى ويظن كل الظن أن مسافره قد خرج ولم يره، وسوف يشعر بالرضا ويسامح كل سنوات الضياع حين يمر بجواره فتىً أنيق محاطًا برجاله، تلتقي أعينهما للحظة ثمَّ يعود الفتى فجأة متخليًا عن كل وقار وهو يغني في ساحة انتظار المطار وسط دهشة الناس..

Three little monkeys are sitting on a tree.

سيلتفت ويكمل بابتسامة تزداد اتساعًا كلما اقتربا ويعلو صوتهما معًا

Teasing Mr. crocodile one two three.

وأثناء قربهما يكملا الأغنية.. ثمَّ يرتمي الفتى الوقور

بين ذراعي المدرس القديم ودموع فرحته، وقد تذكر لحظةً هي الأجمل في حياته.

*****

منافسة

لم يكن أحدُنَا بحاجة إلى هذا الانتصار بعد مرور تلك اللحظة. تطاحَنَّا بقسوةٍ واعتصرنا كل طاقتنا؛ لكي نبدو أمام الموجودين بالصدفة في حالة أفضل. استغرقتنا اللحظة. كان الاندفاع رخيصًا. أضفى التنافس أهميةً على شيءٍ تافه؛ فانجرفنا.. وانكشفنا...

علَّمَني كيف أمسك المقص وكيف يتحرك المشط، ومعنى أن يكون المرءُ مسئولًا عن ملامح أحدهم.

ذهبت إلى المحل بعد وفاة أبي. تركت خلفي أحلامًا كبيرة، أغمضت عينيّ عنها ولم أعد أسمح لها بالهمس. كان الظن الغالب أنني قريبًا سأترك كل شيء وأمضي.. وليتني فعلت.

حبًا أم كرهًا علَّمني؟ ليس يهم! هذه الابتسامة وتلك النظرة، ماذا كانتا تعنيان؟ كان يظن أنه مكانه الخاص، والحقيقة أنه كان كذلك؛ فالناس تذهب للحلّاق وليس لمحل الحلاقة.

*****

أصبحت الآن من ذوي الزبائن. أصبحت أقدام تخطو إلى المحل لأول مرة لي أنا. صرت أحلق لأحدهم وينتظرني آخر. ثمَّ أصبح لي "زحامي" الخاص، كما له زحامه الخاص. تكونت لي من خلال ممارسات طويلة ومِحن كثيرة مع الزبائن طريقة خاصة في الحلاقة تعتمد على اتباع الشعر من ناحية الجهة والشكل والمسافة.

أما هو، فقد أثقلته الخبرة الطويلة ومعرفة الأصول، قيدته القواعد، حيث لا تستطيع الأحرف إلا نسج حروف كُتبت من قبل، وحيث لا تسير الجياد إلى مروجٍ جديدة.

عاصر مرحلة الشعر القصير من بداياتها فلم تكن لديه القدرة على الخروج عن المألوف أو مفاجأة الزبون بإحدى مواهب شعره؛ لم يكن غريبًا أن يكون معظم زبائنه من كبار السن والتقليديين، حتى شعرهم كان محدود الخيال. لم يكن يعترف بطرق الحلاقة الحديثة ولم يكن المحدثون في عينيه أكثر من مخادعين متطفلين على المهنة، لم يأخذوا منها إلا شكلها الظاهر ومرحلتها الأخيرة بغير معاناة. لا بد من بدء الأمر من الصفر، صبي على يد أسطى، يمسح المرايا ويكنس الشعر ثمَّ مساعد يبدل الأمواس ويتناول البقشيش، يصاحب الزبائن ويبدأ مع الأطفال، مع تعلّم أصول كل مرحلة.. أمّا هذا النظام الجديد، الذي يهتم بالشكل والكريم والمثبت فقط، حيث "الغشيم عايز يبقى صنايعي من تاني يوم"، فما هو إلا خداع للزبائن. يذكّرني بالعقاد ورأيه في الشعر الحديث والفن السوريالي:

"الشِعرُ الحر.. إنه مهزلة، لو لوَّنت ذيلَ حمار ومررت به على لوحة بيضاء لصارت سوريالية".

كانت أفكاره الثابتة تحرمه من الحرية في مساحة الشعر، نقاط البدء والانتهاء معروفة، كل الزبائن تخرج بنفس الشكل، حَرَّم على نفسه استخدام أيٍ من آلات الحداثة كالماكينة "والسشوار".. كان يسميها "آلات النصب".

"تدريجة القفا إن لم تكن بطرف المقص رأسيًا فلن تغنيك ماكينات العالم".

الأعجب من كل شيء في نظره، هو الزبون الذي يرضى أن يحدث كل هذا في شعره، أو يرضى من البداية أن يحلق له الحلّاق صغير السن في وجود الأسطى. كيف وجدت هذه الموجة زبائنها؟

"حلّاقين آخر زمن وجدوا زبائن آخر زمن، لا عجب أن

الناس توقفت عن سماع عبد الحليم وصارت تسمع أغاني الهَلس".

*****

أتممت كنس الأرض وتنظيف الزجاج. ذات صباح، قايضت الأمل أن يرزقني بزبون فاشترط عليّ الأمل الجرأة. ووصل الزبون المُرتَجى.. ضخمٌ ينقلني من مرحلة الطفولة إلى النضج. سأل عنه فأنبأته بتأخره، جلس فعرضت نفسي.. وافق متحرجًا وبدأت. طلب قصَّ الجانبين بالماكينة "مشط رقم واحد". سهلة؛ ارتكبتها كثيرًا في رؤوس الأطفال. اشترط تدريج الخطَّ والاحتفاظ بأعلى الجانبين كثيفًا.

الصعوبة تكمن في خط التدريج؛ لا بد في هذه الحالة أن يكون رفيعًا كفاصلٍ شفيف. أنهيت جَزَّ الجانبين بالماكينة، بدا الفارق شاسعًا كما أراد بين أدنى الجانب وأعلاه، استبشرنا بالبدايات خيرًا، كعهد المآسي غالبًا. لم يبق إلا "تمويت" الخط الفاصل بـ"التدريجة". المشط الصغير يقوم بالمهمة.. هو مشط المحترفين في عالم الحلاقة.. أكرهه منذ بدأت؛ يشترط الدقة ولا يسمح بفقد التركيز للحظة ولا يقبل السهو، كتعدد أصوات السرد في رواية معقدة، دقة أشبه بدقة الجراح.

المشط في يد والمقص في أخرى.. ادَّعيت الثقة، لا بد ألا يشعر الزبون بارتباك الحلاق وإلا انتقل الارتباك إليه وتوتَّر السرد. أفلت المقص وفرّ تحت المشط.. مصيبة كبرى، صنع فجوة بسعة مثلث "بارمودا" في عينيّ.. هذه هي لعنة المشط الصغير.. كلما حاولت أكثر فسد الخط أكثر، اتسع الفتق على الراتق.. فلت الأمر من يدي. حاولت "الدردشة" لتهيئة الجو لمساحة إصلاح. أنبأني بغير داعٍ أنه حاصل على بطولة الجمهورية "خفيف الوسط" في الملاكمة. ماجت الأرض بي، تعرّقت وجفَّ ريقي، لا من وزن لكمته، ولكن لاستحالة إيجاد

الحلول وقد تمرد الجانب؛ قطع الجراحُ وريدًا يسكب الدم كالفيضان.

ووصل في الوقت المناسب، قبل دوي الانفجار، جاء على صهوة جواده كما يأتي فارس شهم. شعر بفداحة المصاب بمجرد نظرة. تعللت بدخول الحمام، أسلمته المقص والمشط وطرت.. عدت بعد نصف ساعة لأجد الزبون يشكرني على وضع الخطوط الأولى في هذه القَصّة المبهرة، القِصة التي تعدد فيها السرد فزادها بلاغة.

*****

صرنا ندَّين. نمت بذور التنافس. صرنا نتصارع على أتفه الأشياء وأعظمها، الزبون السخيّ، كرسي المدخل، من يشتري الأمواس ومن يطلب المشاريب، من يكنس الدكان. صرنا دون أن ندري، أو ندري، خصمين: الاضطهاد الخفي، الإيحاء للزبائن بسوء الاختيار، خبث التعليقات وأحاديث السوء. طبعًا ليس الحلّاقون فقط هم الأنذال في هذا الكون، حيث كان الزبون يستمع منه بأقصى طاقته ثمَّ يقصُّ عليّ بكل طاقاته.. يقصّ عليّ وأنا أقصّ له.

وبفعل النذالة بدأ إحساسي في ملكية المحل يتملكني، هذا مكان أبي.. كلما زاد تمكُّني في الصنعة زادت رغبتي في السيادة.. ليست هذه للحق نذالة محضة فهو أيضًا كان يشعر أن المحل حقه المكتسب فصار المكان بمرور الوقت هو الرّهان المضمر بيننا. أصبحنا كفرسي رهان ولم يعد الأمر خفيًا على الزبائن.

جاء ذلك اليوم وأشعل زبونان المنافسة بيننا بخبث، قادا عملية التنافس وانجرفنا فيها بلا وعي، كل منا يحاول أن يثبت أنه الأفضل، كنت في منتهَ التركيز والتحفز وكانت على وجهه ابتسامة تفيض حنانًا.. أو مكرًا. بدأنا معًا، عرفت منذ

البداية أنه سيتبع نفس أسلوبه الجامد.. من أحرج حالات الحلاقة أن يتوق زبونك لحلّاق يجاورك.

رأى في عينيّ التحفز، ابتسم.. ابتسامته تلك، سكن قليلًا، تابع بعينيه بداياتي، تركني أسبقه بمسافة، وضع سيجارته على طرف فمه، سحب نفسًا طويلًا وكتمه قليلًا، أطلقَ سحابة دخانٍ هائلة ثمَّ التقط أدواته وبدأ.. أصبح هو نفسه مفاجأةً أخذت تنجلي بهدوء.. تحول إلى عازف في قمة وجده.. سمعت عزفه المنفرد، تحرك في تناغم.. سعادته أربكتني.. انتهى من الجانب الأيمن بسلاسة. كانت على وجهه ضحكة كامنة.. كان يتحدث إلى زبوني.. لم يكن محتشدًا هناك.. بدأ صوت مقصه يصبح الإيقاع الوحيد المتناغم وأصواتنا نشاز. لم يكن أثناءها حلّاقًا.. كان معنىً.. مجازًا.. قصيدة. كان كابتسامته، غامضًا ومحببًا وخبيثًا في آن معًا.. حتى وقوع الشعر النديّ فوق كتفي الزبون كان له نغم.. ضاق المكان، وددت أن أنسحب لأي عذر لكني استجمعت نفسي.

كنت أعرف أنه سيستغرق وقتًا طويلًا في "الفِنِش" وأن كل زبون منهما عيناه على شعر الآخر، حان وقت الرجوع للحلبة، ليس أدرأ للعيوب من أدوات التزيين والكريم واستعمال المجفف. ارتكبت خيانتي الكبرى: استعمال السيشوار.. الحِل والمثبت. هذا في عينيه استهتارٌ بأصول المهنة.. الحقائق لا الخداع.

لقد مرّ وقت طويل.. أصبح له محله الخاص.. تباعدنا وربما لم يعد أحدنا يذكر الآخر. مضى كل منا في طريقه واستوعبته الحياة كما استوعبت الآلاف غيرنا.. رحيله أورث المحل صمتًا وقلل بهجته. عبقرية صالون الحلاقة يصنعها الحلّاق، تزهرها المنافسة.. الانفراد بالمحل مكسب باهت.

كثيرًا ما أذهب إليه في مكانه الجديد، أراقبه عن بعد.

ما زالت تدهشني أناقته، وقفته أثناء الحلاقة، صوت ضربات مقصه المتناغمة وإيقاعه الجميل، بُعد وجهه عن الزبون أثناء "الفتلة"، سلاسة أدائه لها، دقة تصويبه على الشعرة الناشز، سلاسة تحركه حول الزبون، الرغوة الكثيفة على الذقن العصيَّة، نزاهته في أخذ الحساب وقبول ما يدفع الزبون راضيًا.. عبقرية تحركاته في توفير المساحة في محلنا الضيق الذي لم يكن ممكنًا أن يتسع لكرسيي حلاقة، كان إذا اتفق وبدأنا معًا يبدأ من اليمين حيث أبدأ ثمَّ يتحرك شمالًا إذا تحركت شمالًا، فإذا وقف كلانا خلف الزبونين انطلق وحده وتركني ألهث وراء براعته. هل كان يعرف أنه رائع ومثير؟ تمنيت أن أتفرغ لمتابعته. كثيرًا ما أشتاق إلى كلامه.. وإلى سخريته أيضًا وإلى ضجيجه وصخبه.

فهمت الآن أن ابتسامته الجميلة الحانية ربما كانت لأنني كنت في تنافس معه، فخورًا بتلميذه وهو يكبر أمام عيني الأسطى، ربما كره استعمالي لمكملات صنعتي.. أرادني أن أكون حقيقيًا بلا رتوش.. ربما، ربما كانت أي شيء آخر لكن هذا هو التفسير الذي أحبه الآن،

ربما كنت أنا العَيّيُ منذ البداية، هل يدرك الأشرار أنهم أشرار؟ لقد حلق الزبونان ودفعا نفس الأجر "العادي"، ولم تبق إلا الضغينة.

أدركت الآن، وبعد ظهور حلّاقين جدد وانسحاب البساط من تحت قدميّ، أننا نتبادل الأدوار، وأن لكل زمان حلّاقيه.. والأهم من كل شيء، أدركت أن صالونًا واحدًا يمكن أن يحتوي حلّاقين اثنين وأكثر.

كنا سجناء لحظتنا، كنا ساذجين، لم نمنح أنفسنا البعد.. لنفهم الأشياء.

*****

عنب ومانجة

الأستاذ كمال، المحامي الشاب، يحلِق ذقنه. لست أدري لماذا يعتبره شرفًا كبيرًا لي أن يحلق عندي.. في محلي الصغير.

يتحدث بجسارة فيصدر أحكامًا عامة قاطعة في أي مجال.

بدا لي أنه لا يحدثني بقدر ما يعلمني من خبرته الكبيرة في الحياة والقانون. عادي، صالون الحلاقة مكان عريق لإثبات الحكمة والنفوذ.

يتحدث عن خطيبته من دون مبرر ليسوقَ فلسفته فيقول وهو يضع ساقًا فوق الأخرى:

"أنا باروح مرة كل شهر؛ الواحدة لو شافت الواحد باستمرار الغموض ينكشف".

تسمع في صوته رنّة إعجاب الإنسان بأفكاره وفهمه لكل شيء؛ أشعر أنه ليس إنسانًا حقيقيًا.

قدرتي على الرد "بأنك بذلك تحرم نفسك منها" كانت ضعيفة..

قلّما يعارض الحلّاق زبونًا سخيَّ اليد.

دخل ضياء القهوجي. حين يدخل ضياء المحل، تشعر أنه طلعَ من باطن الأرض، خفيف وسريع، لا يمكن أن يمضي من دون "لستة مشاريب" وسماع ما يقال، والتدخل بتعليق خاطف، يكاد يدس أنفه في معجون الحلاقة.

صمم الأستاذ أن أشرب شيئًا على حسابه.. ترددت فأصدر أمرًا حاسمًا:

"هاتله يا بني قهوه مظبوط، من البن بتاعي".

أومأ مدلّلًا إنها ستعجبني. توسعت مساحة صوته فجأة عندما

دخل سامح، وهو شاب حيي هادئ الملامح "مبتعد" متواضع الزي في حوالي الرابعة والعشرين، اكتسب وجه الأستاذ مسحة عظمة وفَهْمٍ وأردف، بغير داعٍ:
"علمتني الحياة ألا أثق في موج البحر والنساء".
جلس سامح بعد أن حيَّا الأستاذ بتقدير خاص فسأله:
"إيه أخبار الحلمية يا مستر سامح، الإنجليش ماشي كويس؟".
ردّ الفتى في إيجاز واحترام مبتسمًا: "حلوة".
فقال المحامي التجاري: "وكل يوم بتحلو أكثر".
–بدا في عينيه وهو ينظر إليّ أنه يقصد شيئًا خاصًّا عميقًا–
رددت على الأستاذ لمجرد المسايرة: "طول عمرها حلوة".
انفجر ضاحكًا. نظر إليّ بما يعني أني أفهمه فشعر سامح بالحرج. وجّه الأستاذ حديثه مباشرة إليه وقال غامزًا لي بعينيه:
"فاهم وعارف اللي بيحصل.. في الحصة.. ها.. هئ هئ"، ثمَّ تابع بصوت خبير: "ما دام سلمتلك يبقى مش هتنساك".
نظر الفتى إليه في وجوم فأردف المحامي سميك الجلد وهو يعوج جانب فمه الذي أحاطته رغوة الكريم الكثيفة:
"ما تقلش حاجة، أنا فاهم، دول جيراني، أنا باقولك الخُلاصة".
دخل ضياء بالبن "بتاعه" فقال له: "هاتله لمون يا ضِيا".
ما زال مُصرًا أن يختار لكل واحد مشروبه.
قال سامح في صوت أشبه بالصمت: "خُلاصة إيه ؟!".
قال بنبرة أستاذية:
"لسه الحياة هتعلمك، بس الخلاصة زي ما قلتلك.. في السن ده وتحب و.. هاه.. يا سامح.. هئ هئ".
"أستاذ كمال بعد إذنك ممكن تسمعني.. الحقيقة ...".
"أنا ماليش دعوه بالحقيقة، أنا ليا المستندات، أنا محامي، أنا

عارف.. هتحبها وهي تتجوز واحد تاني، بس مش هتنساك، أينشتاين بيقول إيه؟ إن الله لا يلعب بالنرد.. دا قانون، قصة قديمة.. تبدأ عندك وتخلص عند واحد تانى".

أوقف المحاضرةَ دخولُ الأسطى محمود النجار ليملأ "دِيسك الغراء" وهو يقول:

" إيه ده.. أستاذ أبو العريف عندنا؟!".

انزعج الأستاذ كمال حين رآه، انطفأ في لحظة وجوده تمامًا. أشار إليّ باستئناف العمل، كنت قد توقفت تمامًا أثناء المحاضرة. بدا الأستاذ حزينًا حين صمت، أما سامح فقد ازدحمت في داخله الأفكار، ألجمته فكرة أن سيرة حبيبته قد وصلت لهؤلاء "الكبار" وفي صالون الحلاقة.

انتهت الحلاقة، أخرج رزمة مالية كبيرة، أعطاني منها عشرة جنيهات:

"مش عايز باقي، خلاص، الفلوس مجرد ورق، خلاص خلاص".

ليته يأخذها ويتوقف عن هذه "الزفة".

قال سامح في وجل وصِبَا: "يا أستاذ كمال، كنت عايز أقولك ...".

أراد أن يحدِّثه بعيدًا عن صالون الحلاقة.

خرج الأستاذ، وضع يده على كتفي سامح وهو يمضي به بعيدًا متخطيًا دكان الأسطى محمود النجار، وقف به أمام سعدون الرقّاء الذي قام محيِّيًا الأستاذ في إكبار مُبَالغ فيه ثمَّ جلس.

استكملا حديثهما وكنست دكاني.. وددت أن ألقي العشرة جنيهات، لكنني اكتفيت بنفخة غيظ.

عاد سامح ليحلق. ظل صامتًا طوال زمن الحلاقة...

أنا الذي رشحته لأبيها منذ سنوات حين كانت "أميرة"

في مدرسة "سان فنسان دي بول" العريقة، وكان هو في ثاني أعوامه بكلية التربية قسم اللغة الإنجليزية، المادة الأقل أهمية في مدرستها. مَثَّل لها فارقًا هائلًا في المستوى، علَّمها مخارج الأحرف وحُسن السمع وطلاقة التعبير، اتَّبع معها أسلوبًا حرًا متدفقًا وجديدًا. بعد الحصة، كان يأخذها إلى مكتبة "عم وهبه" فيختار لها من القصص ما يناسب مستواها تاركًا أمر الحساب لأبيها.

هو أيضًا استفاد من تدريسه لها، تدرج معها حتى وصلت للثانوية العامة، عاملها بتقديس كالملائكة.. كانت بالفعل راقية سلِسة القياد، ناعمه تعشق البرقوق والقطط الصغيرة، لثغتها في حر الراء تشجيه. الفارق في السن والفكر بينهما أخذ يضيق مع نضجهًا جسدًا وعقلًا حتى كاد يتلاشى. نظرتها الصافية له لم تتكدر بمهنة أبيه الفكهاني الذي يفترش الشارع.. لم تخجل أمام زميلاتها أن مدرسها هو الفكهاني ابن الفكهاني.

تخرّج سامح في الجامعة بتقدير جيد جدًا، تقدير هائل لمَن في ظروف خيرًا من ظروفه، طار بالحلم فخورًا إلى أبيها، تجرأ وطلب يدها.

نظر أبوها للأرض صامتًا، كان يلوك شيئًا مرًا تحت لسانه، بدت مرارته من انطباع وجهه، ساد صمت كئيب.. هدأ كل شيء في لحظة، النجاح والتقدير والفخر.. هبط كل طير على الأرض.. قال الأب في هدوء مخيف:

"بكام كيلو العنب؟".

اندهش سامح لكنه أجاب:

"بجنيه ونص".

"والمانجه؟".

"بسبعتاشر".

"ينفع اللي معاه جنيه، حق العنب بس، يشتري مانجه؟".
"معلش.. مش فاهم".
أربد وجهُ أبيها وهو يقول ببطء:
"يعني كل فوله وليها كيال،"
تغيرت نبرته وبدت نظرة عينيه قاسية وهو يرفعها ببطء:
"لو قربت من بنتي تاني أو كلمتها لا حتبيع منجه ولا عنب.. امشي".
بقيّ واقفًا في مكانه غير مستوعب.. ألقى أبوها أجر الدرس الشهري في وجهه ثمَّ طارت الجنيهات في الشارع كأوراق الشجر...
أصبح لقاؤها منذ ذلك اليوم بعيدًا كثمار النخل العالي...
انتهت الحلاقة، ظل مطأطئ الرأس، لم ينظر إلى المرآة ولم نتبادل خلالها كلمة واحدة، تركني وهو يشغلني.. ثمَّ شغلتني رؤوس أخرى.
ما بين العصر والمغرب، يتسم شارعنا بالهدوء. تنحسر الشمس عنه تدريجيًا، العمائر المصطفة على جانبيه تقيد الظل ككلمة بين قوسين، يبدأ عمال الحاج رشيد صاحب معرض الموبيليا في رشّ الماء فتنطلي الأرض بلون رمادي محبب، وينكفئ سعدون الرقّاء على قطعة ملابس، رافعًا عينيه بين لحظة وأخرى باحثًا عن أي فِرية يبتلي بها أي جار أو يهتز ضاحكًا بلا سبب واضح. ويجلس "عم وهبه" ساكنًا أمام كتبه. لحظة غامضة يسكن فيها كل صوت ولا يهمس في الشارع سوى صوت "عم محمود" بين أخشابه وهو يقرأ سورة "يس" مخطئًا في كل أحكامها.
بعد المغرب، عاد سامح ضائع النظرة، قال بين أنفاسه اللاهثة:
"مصيبة!! ناس م القسم بتدور عليَّا.. أخدوا أبويا من ع

الفرشة".

نظرت إليه في صمت.. لست أنا الشخص المناسب للتعامل مع قسم الشرطة. أبلغ أحدهم أباها أنه ما زال يقابلها. زوجة المأمور واحدة من زبائن كوافير أبيها.

قلت له: "الأستاذ كمال.. ما فيش غيره، وربما ضياء".

أيها الأستاذ النبيل، هل نظروا إليك نظرة التقدير تلك! هل قالت أعينهم وهم يشدُّون على يديك: "أنت رجل شهم نبيل حريص على جيرانه، تعرف كيف تعامل موج البحر والنساء!".

طوال اليوم، وسامح يذهب ويعود وهو أشد حيرة وعذابًا، لا توجد كلمات لوصف حيرة عينيه.. كلما عاد إلي زادت مساحة الشجن والفراغ في عينيه.. ثمَّ انقطعت الأخبار تمامًا.

غاب لفترة طويلة، وبدوري، أصابني القلق، أصبحت عنصرًا أساسيًا في القصة وأنا المنزوي في مخبئي عن العالم.

خرجت أتلصص الأخبار، صدمتني سرعة الحياة، العالم بالخارج في غاية الاتساع وسيارات كثيرة متضاربة الاتجاهات.. روحي تتشعب.. لا بد أن يتم الأمر بسرعة قبل أن تنفصل ذاتي عني.

لم يكن عند الفَرشة وكانت الفاكهة وحدها، حائرة أيضًا.

قابلت أحدهم، "ميزو"، يبدو أنه تَبَرَّعَ برعاية "الفَرْشَة". سألته: "ما شفتش سامح؟".

"اتنين عساكر جم خدوه.. سعدون الرفا قال لابوها".

سعدون الرفّاء بدين، أثقل وزنًا، لكن قربه من المنزل ومتعة الإيذاء والإكبار المجاني الغامض لذوي السلطة منحوه الرشاقة فكان الأسرع في الإبلاغ.

*****

اليد الصغيرة

لم يكن حقيقيًا إلا في المسافة الفاصلة بين الشرفة والأرض الصلبة. كيف احتفظت هذه الصخرة بصلابتها حتى تفتتت ليتضح أن بداخلها قلبًا في النهاية!

لم يعشْ على طبيعته يومًا، لم يكن يسمح حتى لأقرب الأصدقاء أن يتخطى المسافة الفاصلة إلى ذاته، ربما هو نفسه لم يقربها إلا حين انقطعت هذي اليد التي لم تمسّ سوءًا قط.

أثناء الحلاقة، كان دائمًا بعيدًا ومتعاليًا وجهمًا، يتعامل كأنه وزير العالم. إذا تكلم، تكلم من بعيدٍ، كأنه من كوكب شاهق، كل من فيه عمالقة قادرون على تحريك الكون. عالم مليء بآلاف القصص عن قدراته ومواقفه التي أربكت العالم، يحكي ويحكي، فإذا دخل ضياء القهوجي يغمز لي لحفظ المقامات، ثمَّ يكتسي وجهه بغلالة من وقار وهيبة تخدع الحلّاق نفسه.

في سيره بالسيارة، كان يحرص على شكل مهابته أكثر من الطريق، وضع "سارينة" ضابط يسعده أثناءها أن تفر أمامها سيارات الأجرة، ساعده على ذلك جسمه الفتي وملامحه الصارمة.

عندما تزوج ناجي جلال، الموظف بمنصب إداري رفيع بمصانع الحديد والصلب، للمرة الثانية، لم يُبدِ لزوجته أنه يشعر كما يشعر الآخرون؛ لأنه يؤمن أنه يجب أن يبقى بعينيها صلبًا وبعيدًا ووقورًا.

أما هي، فكانت من ذلك النوع من النساء اللاتي يحتملن مثله طالما لا يلحظ إلا ما يكفل له المهابة، لا تريد أن يلقيها بلا حقوق كزوجه الأولى.. تُغذي شعوره بالسيطرة.. تستقبله بقبلة، تخلع ملابسه، تطوف حوله وتسعى لتلبية

طلباته، تُجهّز له الحمام - لا يعني هذا شيئًا إلا أن تذهب إلى الحمام ثمَّ تخرج - ولا مانع من أن توفر عليه جهد "دعك ضهره"، ولا بد أن يكون الشاي جاهزًا قبل أن يفرغ من طعامه.

والحقيقة أنها إذا زمجرت، يتحول كل شيء إلى النقيض وحينها "السبع يتكهرب ويبقى فرخه".

إذا تخطيت غلالة المهابة التي يصطنعها لوجدت خلفها أرنبًا.

أعطت جارهم الشاب الذي يستذكر لابنه كل مفاتحه: "قم له إن كنت واقفًا، اجرِ عليه، انحنِ، املأ عينيك بالتصاغر، لا تناديه باسمه مجردًا، عامله كـ "باشا".

روى لي ذات حلاقة أن ابنه يختبئ تحت السرير بمجرد أن يسمع صوت سيارته تركن أسفل البيت رغم أنهم في الدور السادس، "وعندما أصعد.. أتظنني أناديه؟! لست أقل منه لؤمًا ذلك الشيطان، أتركه يدفع ثمن لؤمه فآكل في بطء وهدوء، أستمتع بسماع أنفاسه المرتعبة بينما يظن هو أن خطته ناجحة، وربما أتركه حتى يروح في نومه... الولد إذا ماترباش من السن ده مش هيتربى أبدًا؟ أنا أبويا كان بيكويني بالنار، أمال إحنا طلعنا رجالة إزاي؟ هكذا أدبت أمه وحرمتها منه".

وجاء ذلك اليوم، تجرأ هذا الابن ذو الأعوام السبعة وأخذ الكرة ليلعب مع طفل في الجوار بعد الدرس؛ لم تُوصِه الزوجة بسرعة العودة، منحته إذنًا غير منطوقٍ بالبراح.. لم يكن بالبيت حين عاد أبوه، انتظره ولم يعد، أحس بالإهانة؛ هكذا ستفلت الأمور، قرر أن يؤدبه...

ربط إحدى يديه بأحد الأسلاك بإحكام في حديد الباب، وأقسم "طلاق تلاته" على زوجته إن هي حاولت فكه حتى

يستيقظ من قيلولته. وقبل القيلولة كان قد أخذ قرص فياجرا.. حتى على فراشه لم يكن حقيقيًا.

صرخ الطفل كثيرًا، لكن صراخه فقد معناه من كثرة تكراره في هذا البيت، ضرب الباب برجله، صرخ حتى أُرهق ثمَّ تحول الصراخ الى أنين خافت، غير أنه امتزج بأنين الزوجة التي ما كانت لتترك فحلها الآن وقد وجدت فيه صلابة لم تعهدها من قبل، كفاءةً لا ادعاء فيها ولا هي كعادتها، غلالة رقيقة من عُلوٍ يخلفها خُمود، بل صعود مطرد.. تلقَّت دفعاته المنهمرة كطرقات المدافع بكل احتفال. والرجل، الذي يعشق الأنين وغنج النساء، مستمتع بكلا الأنينين كبرهاني رجولة وسيادة...

وعندما بح صوت الطفل وانقطع أنينه كانت الرَّيَّانة الطَّروب أيضًا قد ألقت رأسها على كتف زوجها العريض وقد استقرت على فمه ابتسامة ظفر وراحا في نوم عميق وسكت الطفل تمامًا من شدة الإعياء.

*****

لم يجد الطبيب حلًّا لإنقاذ ذراع الصبي سوى بتر الكفِّ المسممة بفعل الغرغرينا نتيجة إحكام الربط عليها لأكثر من ست ساعات متواصلة..

عندما حان موعد فك الرباط، ليراها الطفل لأول مرة، كان الأب واقفًا في تخاذل.

رأى الصغير يده بغير كف. لم يفعل إلا أن نظر لأبيه وقال:

"بابا، هاتلي ايدي وأنا مش هالعب كوره تاني".

لو حاولت أن تجمع كل لوم الدنيا لما كان أشد وقعًا من هذه الكلمات الصغيرة .

لم يرُد، لم يجد في لسانه ردّ.. لم يكن في عقله ردّ..

تحول إلى فراغ.

اتسعت حدقة عينيه وظلت تتسع وتتسع، لكنه لم يكن يرى شيئًا. شعر أن كل شيء داخله؛ أفكاره وعقله وقلبه وروحه، ماضيه وحاضره.. كلٌ تحول في لحظة إلى تراب مركوم.. صار شعاعًا.

خرج متوجهًا إلى بيته تاركًا زوجته مع الطفل. كان حقيقيًا في سيره لأول مرة، حقيقيًا في قيادته، حقيقيًا حين توجه إلى شرفة بيته، وحين ارتقاها، تاركًا كل وقار العمر خلفه، ثمَّ وقف قليلًا.. تذكر سؤال الصبي.. فكر في رد.. لم يجد.. لن يمنحه القادم من الأيام أي رد.

ألقي نفسه مقررًا أن تكون رأسه هي أول ما يرتطم بالأرض.

*****

اللؤلؤة

عشقت حلاقة شعر هذا الزبون، كان حديثه رائعًا ينبع من وجهة نظر، لا يتكلم لمجرد ملء الفراغ. الحلاقة دائمًا، آخر ما يشغل بالينا.

لقد اكتملت شخصيته وتكونت لديه أراءٌ تنساب عبر لسانه برقة وسلاسة من دون أي انفعال، متدين من دون "همبكه"، معتدل حتى في الحلاقة. تسريحة شعره تعكس اتزانًا وهدوءًا. كان حديثي دائمًا كلمات بسيطة أفتح بها المجال؛ ثقب صغير أثقبه في قارورة عسل ليندلح.. كان لا بد أن أتوجه أحيانا بالسؤال المباشر.

أتذكر دائمًا أثناء محادثته شيئين: الأول، "بيدبا"، الفيلسوف الذي ينطلق حديثه بمجرد أن يسأله الملك "وكيف كان ذلك"، والثاني، وصف يحيى حقي شعر شاعر بأنه ينساب كالماء الرقراق إبريقًا تلو إبريقٍ من نبعٍ صافٍ.

صوته عميق هادئ كأنما يخرج من خبرة آلاف السنين.. ليتها لا تنتهي هذه الحلاقة.

فاجأني أنه يسعده أنني حلاقه. الأروع بعد ذلك أنه سخيُّ اليد رغم بساطة مطالبه وصلعة رأسه.

حدثني عن قصة عشق هائلة مع زوجته تساعده على سلام النفس، يجدها واحته الحانية؛ يصونها كنعمة غالية...

ما أقل الزبائن الذين يتحدثون عن زوجاتهم بخير في صالون الحلاقة!

قال إنها تتمنى لو تصير أُمًا. لولا وقوفها عند بعض الصغائر لكان أسعد الناس بها، يخشى أن تتراكم السحب.

"في نوبة غضب واحدة، قد تجعل كل ما بيننا من وفاق يبدو كأكذوبة".

نختلف قليلًا، أحيانًا أخالفه متعمدًا، لأن الخلاف جميل بين متحاورين، ولأن الضد يستفزه ويستنفره فتنطلق حججه وعقله متوزعة على كل حلاقة...

يرى أن "أنطون تشيخوف" أعظم من كتب القصة القصيرة، لأنه قال للناس في بساطة: "انظروا كيف تعيشون! ليس القبح قصة بعيدة في الصحف، أحيانًا يكون داخلنا، تحت طبقة سميكة من الواقع المألوف.".

يري أن الإخاء الذي تم بين المهاجرين والأنصار على يد النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة المنورة هو أروع نموذج للمدينة الفاضلة التي تحدث عنها الفلاسفة.. هذه الفترة في هذا المكان هي ذروة الإبداع الإنساني السوي.

يري أن ترتيب الخلفاء الراشدين بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- جاء ربّانيًا محضًا فلم يكن أحدهم يمكن أن يسبق الآخر.

لا كمال إلا في طريق الله؛ آلاف السنين التي عاشتها البشرية أثبتت ذلك. يود أن يفرد باقي عمره للبحث في مباحث الرجم وملك اليمين وسبي النساء والأكاذيب المفتريات على دين الله، يقول الله في سورة النور، "فَاجْلِدُوا"، فيقولون إن راوي الحديث يقول بالرَّجم!!

"كانت العرب أهل بلاغة ولغة وحِكم، كثير من كلامهم عومل معاملة الأحاديث الشريفة؛ فامتلأ الدين بما يؤخذ عليه ولا يحسب له حين يتفحصه شاكٌ. مهما بلغت بلاغة البخاري العظيم يظل عمله جهد بشر لا يعصمه عصمة كتاب الله أنه لم يأخذ ممن كان يخدع الحصان بالعلف المزيف، يظل جهد البخاري العظيم عظيمًا لكنه يبقى عملًا بشريًا قد يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وقد يضيف إليه المغرضون والمنافقون.. لعلَّه تَزيّد أو انتُقص أو حُرّف.

قال أحدهم قديمًا:
"إن هذا الحديث دينٌ، فانظروا ممَن تأخذون فإنا كنا إذا أعجبنا شيئًا صيرناه حديثًا".
"ألست ترى ما أضافه العباسيون إلى الحجاج بن يوسف؟".
"لقد كان سُمُوُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من سمو بشريته، كان بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، يعشق نساءه ويخصف نعله، يمرض ويجوع، كان نذيرًا وبشيرًا، ما أظنه ينصح الناس أن يضعوا جناح الذبابة الأيمن في المشروب إن وقعَ جناحُها الأيسر في الكوب، وما كان هذا "الجنتل مان" ليرضى من الناس أن يشربوا بول الإبل أو يشغله طول الجلباب وحلاقة شعر العيال ولُعاب الكلب والشجاع الأقرع".

يرى أن الثورة قادمة لا محالة، لا يعوّل في ذلك على الشعب بل على أن الظلم والفساد وصل لذروته وسيسقط نفسه بنفسه، سيتحرك الناس قسرًا إن لم تحركهم معاناتهم.

****

كان بسيطًا في تعامله مع الحياة، ومحايدًا ولكن نفسه عميقة، كل رأي من آرائه يحتاج أكثر من حلاقة لِيدر كل ما يحتوي، كانت كل حلاقة أشبه بتنقية الذهن من سفاهات العادة والسباحة في الهواء الطلق.

ذات حلاقة، كان صامتًا فوق ما يجب، كان كسيرًا وحيدًا زاويًا لا يريد أن يتكلم، لقد اختلف مع الحياة كثيرًا، أما بيته فقد كان مأوى التفاهم والحنان.

تطور خلافٌ حادٌ بينه وبين زوجته؛ تأخر الإنجاب كان سببًا مبطنًا لا يبوح به أحدهما للآخر، لم يكن لدى الأطباء سببٌ لتأخره، لم يحتمل صياحها وتحطيمها لما تطال يداها ولم يعد يحتمل إلقاء اللوم عليه، وجد نفسه يصرخ أيضًا أنه لم يعد

يطيق ذلك.. فوجئ عند رجوعه إلى شقته أنها بلا "عفش"، لقد تركتها "على البلاط".

كان الصمت سلاحه والبعد بالنسبة له هو العقاب، بالوقت سوف تشعر أنها أخطأت، ستقف في لحظة ما لتسأل نفسها ماذا فعلت، ولمَ! لقد ضيعت حبًا كبيرًا!

لكنها بعد فتره فاجأته بمحضر قائمة الزوجية ثمَّ طلبت الطلاق.

قضى وقتًا طويلًا دون أن يتخذ أي رد فعل، لم يكن يفعل شيئًا سوى الصمت والملل في انتظار لحظة صفو يروق فيها كل شيء بلا عتاب...

في الحلاقة الأخيرة، قال إنه يئس أن تمرّ حتى باللحظة التي قصدها، لا شيء أقسى من أن يستهان بك لمجرد أنك متاح دائمًا.

وبعد صمت طويل سألني، ما الذي يمكن أن يحيل الأحبة إلى هذه الصورة البشعة؟ ألم تكن بيننا لحظة جديرة بالاحترام؟

كان حزنه ثقيلًا.

تمنيت أن أقول له إنك تحتاج إلى الخروج من عالمك الكبير قليلًا.. أن تعرف الحياة، إن عدم وجود الأبناء لا ينفي عن المرأة الأمومة؛ لماذا لا تكون ابنها أحيانًا؟ لعل انشغالك بقضاياك الكبرى ومعارفك قد أثقلك.. ليس مرادفًا للفهم والثقافة أن تكون كئيبًا، جافًا وشامخًا، لعلك لا تلاعبها ألعابًا صغيرة.. لعلها تحتاج أن تخرج من مآسيها الصغيرة إلى حديقة بسيطة تحدثك فيها عن أمور تافهة لكنها لذيذة.

لكنني صَمَتُّ؛ أعرف أن الطلاق قد يحدث في أوقات تافهة، لكن ليس لأسباب تافهة.. فإما إنها كذلك أو إنها لا تستحقك.. وأنك هكذا أفضل.

نظـــــــرة

لم يكن النهار قد تخطى عتباتِ الظلام بعد، حين وقف "عم علي" الفكهاني يرصّ الفاكهة بمساعدة ابنه سامح. على عينيه ووجهه تأصلت ملامح الإرهاق من سهر ليلة طويلة بجوار الفاكهة؛ تجنبًا لمشوار طويل إلى بيته في "أبو النمرس" ليلًا والعودة صباحًا.

ولم يخلُ وجهُه المعجون بالشقاء من بِشر النهار وهو يردد ترانيمَ البيع الجميلة التي ينشدها كل صباح متغزلًا بالفاكهة وأصابعه الخبيرة تفرزها في كفاءة وود، تحت الشجرة الوارفة التي زرعها "عم جلال أبو ناجي" قبل أن يموت في عامه الثمانين، مات وفي يده فسيلتان فزرعهما، سُميت هذه القطعة شجرة "عم جلال". ما زالت كلماته تتردد في صالوني حين عاد بعد زرعها منهكًا لينال شربة ماء:

"الناس بتقف تستنى الأتوبيس في الشمس مفرهدين يا عيني م الحَر".

استفاد منتظرو الأتوبيس بواحدة، أما الأخرى فقد اتخذها عم علي حدودًا علوية لمحله الموجود في المطلق.

ما إن انتهى من رصِّ "الفرشة" وجلس سامح بجواره يطالع جريدته ويجهز كتبه، حتى توقفت حافلة مرعبة ضخمة أمامه، انقضّ منها عسكر البلدية كالنسور الجارحة، وبدأوا يحوِّلون الفاكهة إلى السيارة الكبيرة في حماسة لا تفرض عليها الألفة أي فتور.

الغريب أن الألفة نفسها جعلته لا يُبدي أي محاولة لمنع النسور؛ اللهم إلا محاولة بائسة لإخفاء الميزان، فالعساكر يتحركون بكفاءة تنبئ عن قناعة مذهلة بأهمية ما يفعلون، نظرة عين ضابطهم في منتهَ الشراسة، والناس أكثر ألفة حوله

تكتفي بالنظر، تفكيرهم في مواجهة الضابط الشرس لا يقل فتورًا عن محاولة القرب لالتقاط الفاكهة التي تتناثر أثناء النقل.

لم يتحرك سوى سعدون الرقّاء، اتجه حيث أُخفِيَ الميزان، التقطه ثمَّ سلَّمه لأحد العساكر في حماس، عاد واضعًا يديه خلف ظهره منحنيًا، رأسه وعيناه على عين الضابط.

فكرت، على استحياء، أن أقترب من الضابط بصفتنا "متعلمين زي بعض" لأحدثه، لكن أحدهم سبقني فنهره الضابط وأغلظ له وأمر عساكره أن تفرِّق الناس.. كعادتي رجعت.

ظهر الحاج رشيد، الشامخ في شارعنا كأساطير الأوليمب، وصاح في الضابط بغير رجعة:

"بقى هم دول اللي خاربين البلد يا سعادة الباشا؟ روح شوف اللي بتعملولهم تشريفة، ولا عشان دا في الشارع ودوكهم ف التكييف".

رأى الضابط أن من السلامة ألا يصطدم بمثل هذا الرجل، وأحاط به بعضهم يرجونه ألا يغضب، ذهب إليه الأسطى محمود يستسمحه ويقبّل كتفه فزاد الحاج رشيد غضبًا فقال وهو يوجه سبابة الاتهام نحو عم محمود: "والله ما خاربها غير المَلَيطَه بتاعة اللي زيك".

لم يزد عم محمود على أن نظر اليه.. كلاهما على مشارفِ الستين، لكنَّ الشقاء أشَد وضوحًا على قسمات النجار ضامر الوجهِ محدودب الظهر قليلًا، أما الحاج رشيد فمستقيم كشجرة سنديان لا تسقط أوراقها في الخريف.

انتهى الأمر في زمن يسير. جلس عم علي فوق حجر كبير يتابع السيارة الضخمة وفوقها العساكر. ظل صامتًا.. عيناه غائمتا النظرة، وكان بالأصل ممصوص الوجه حاد شعر

الذقن كأشواك الصبار.. لا بد لحلاقتها من رغوة كثيفة وموس حثيث الحركة حاد وحذر.

عدت إلى مخبئي، كلما أخرج للشارع الفسيح شعرت بالتناثر وأحببت ضيق صالوني، نفس التناثر الذي كان في عين سامح حين أراد أن يدفع عن أبيه فردَّه أبوه بنظرة مانعة، انكفأت رأسه ولم ترتفع حتى رحلنا.

كانت الرقيقة أميرة هناك تنظر إليه وقد غلبتها الدموع. لم تطق شماتة أبيها حين قال في النهاية:

"شفتي؟ أهم حاجه الاختيار.. أنا مش عايزك تتبهدلي".

"بابي، لو إنت اللي عملت كده، تأكد إن ربنا شاف كل حاجه".

"بيبي.. أنا مش عايز أأذيه.. هو ما يهمنيش.. دا حاجه ع الرصيف.. أنا عايزك تختاري صح".

"وحضرتك يا بابي بتعمل كل حاجه صح قوي الصراحه".

كانت إجابتها كالضربة القاضية، فأطرق هنا، مثلما أطرق سامح هناك. كان بالفعل في هذه اللحظة مطرقًا ونادمًا على وجوده في الحياة.

*****

في حوالي الواحدة، اسْتَدْعَى الحاجُّ رشيد عم محمود إلى المعرض وأعطاه خمسين جنيهًا؛ قيمة الغرامة المتعارف عليها لاسترداد الميزان. أخذها وقال:

"هو انت مش هتبطل جنان يا رشيد؟".

ضحكا .. نسيت أن أذكر أن ضحكة الحاج رشيد ناصعة كالسحاب.

مضى الأمر وتحول الموضوع إلى نكتة في المساء، بدأها أحدهم حين قال لعم علي:

"كنت حُط لي عنقود العنب اللي شلته م الميزان امبارح".

قال آخر:
"كان في بطيخه عاجباني قوي".
التفت الأسطى محمود نحو الرقّاء وقال ساخرًا:
"بس سعدون قلبه ع الحكومه قوي.. رايح يديهم الميزان".
"لا والله، أنا قلبي عليه، أنا كنت باثبت حَالّه، عايز أضمن له حقه".
قال الأسطى محمود بلهجة خالية من المزاح:
"والله يا أخي تلاقي جدك هو اللي سلّم سليمان الحلبي".
***
لكن هذا النهار المُلبَّد بالمهانة كان يحمل حادثة أخرى...
كان بين يدي زبون أرضي أقرع، يخادع شعره فيقسمه قسمة غير عادلة، يفتعل فارقًا ضيقًا فوق أذنه اليسرى تمامًا، مُرسلًا خطوط شعر وهمية للجهة اليمنى مغطيًا قرعته.. يطالبني بحزم ألا أقرب شعره "من فوق".. لا بد أن مثل هذا كاذب في كل أمور حياته، كيف نلوم الغارقين في خرافاتهم إذا كان هذا مقتنعًا أن له "شعر مسبسب".
فوجئنا بامرأة تجري أمام المحل وهي تصرخ في فزع ثمَّ يتبعها زوجها في توعد مرعب ومجموعة بنات يرين المشهد فيجرين خلفهما يستطلعن الأمر وهن يصرخن في مرح:
"تعالي يا بت نشوف في إيه".
وكلما مرّ الفوج بمحل خرج صاحبه وعماله يتفرجون على المشهد.
سألتُ أحدهم: "هو في إيه؟".
"معرفش، أستاذ كامل بيجري ورا مراته".
كانت ترتدي"جلابية بيت" مهلهلة وشعرها في منتهَ

الارتباك وهو خلفها مرتديًا شورتًا وفانلة زرقاء وعلى وجهه همجية لم نعهدها فيه وهو الثري الوقور الطويل المحترم.. هي أيضًا معروفة بالأناقة ولباقة الحديث وثراء المنظر وتحظى باحترام الجميع. حين تكون مع صغيرها ليحلق تقف في أناقة وتدفع بسخاء وتعالج بكثير من الحكمة خوفه الشديد من المشط والمقص.

احتمت بدكان سعدون الرقّاء. ظل منكفئًا على قطعة ملابس بيديه. ربما فكر في دفعها بالخارج لكامل بك الذي يحترمه بوصفه الأغنى والأكثر سطوة بالشارع، ليس من شك لديه أن غنيًا مثله لا يمكن أن يكون مخطئًا.

لحظة صمت طالت على الجميع ريثما يلتقط كامل بك أنفاسه، أقبل صغيرها، وقف بجانب أبيه.. لكن عينيه وقلبه كانا بجوار أمه.. قررت أن تستسلم حين رأته.

كانت نظرة قهر في عينيها تدور بلا وجهة، النصيب الأعظم فيها كان لخوفها أكثر من انكشافها بين الناس.. كان الموقف كله أنشودة قهر ومذلة قديمة محفورة في عينيها، بدا أنها متخفية منذ زمن خلف ملابس أنيقة وطريقة لبقة في الحديث واهتمام مبالغ فيه بالمظهر الخارجي.. انكشف المظهر البراق عن زيف منفر. كان انتباهها إلى مظهرها أمام الحلّاق والنجار والترزي رفاهية في هذا الوقت العصيب.

- وبتجريني في الشارع؟!

اقتربت – تاركًا استعبادي – أقدم خطوة وأؤخر خطوة ثمَّ قلت في نفسي ما قاله كل الخانعين حولي في أنفسهم "إنهما زوجان، وهذه أشياء تحدث".

انتهى تربص الفهد الشرس، أوشك أن يجذبها من داخل المحل، لكن ظهور امرأتين ورجل أجّل الهجوم قليلًا. احتمت عيونها بهم، لكنه الاحتماء من خطر عظيم بخطر أقل

منه؛ عيونهم لا تقل ضراوة لكنهم لا يملكون نفس السلطة – سلطة الضرب دون مراجعة –. وقف الرقّاء متصاغرًا يعلن بإشارة من يديه ألا دخل له بلجوئها إليه.. قالت إحداهن لائمة:

"انتي عارفه انه بيتنرفز من طلباتك.. مكانش وقته".

قالت لما اقتربوا منها: "بلاش في الشارع".

تحركت خارجة من المحل.. بدا على وجه الفريسة آثار مخالب الفهد.

قال لها أخوه: تعالي معايا.

مضت مع الأخ وأمه وأخته. ابتعدوا جميعًا، هم في المقدمة والزوج على بُعد أمتار قليلة خلفهم في ثقة واطمئنان تزفهم العيون.. رأيت ذيله يلعب في كبرياء.

ارتطمت قدماها بحجر وكادت تتكفئ، لم يتحرك أحدٌ ليسندَها، بدأت أحاديث جانبية خبيثة:

"لعله رأى شيئًا".

مرّ الموكب بعم محمود فنادى أخاه:

"قل لاخوك إن المَرَه جوهره؛ لو محتطهاش فوق راسك، ممكن تحطك تحت رجليها".

ليس هذا هو نفس الوجه المتواطئ الذي قابل به الضابطَ صباحًا.

ملتصقٌ دكاني بدكان الأسطى محمود - وهذا من روعة أقداري- ابتعد الموكب.. لم تعد تعبأ أن يراها أحد.

التقت نظرتا العينين..عرفت تفسير نظرة "عم علي".

حين عدت للزبون كنت في منتهَ الصمت. لم يكن قد تحرك، وإنما كان يضبط الفارق الوهمي في شعره بين خطوط الطول ودوائر الوهم.

*****

عندما تمرْ اليوم بسور النادي، تجدْ فرشة "عم علي"

قد اختفت تمامًا. ليس مكانها سوى حاوية قمامة، تحت شجرة "عم جلال" الوارفة التي زرعها في آخر عمره ليستظل الناس والتلاميذ بظلّها أثناء انتظار الأتوبيس.. صارت المساحة التي كان يشغلها صماء كابية.

أما هي.. فقد مرّ خبر موتها، بعد أسبوع واحد، باهتًا بلا ضجيـج.

*****

العجوز والسمكة

أُحِيلَ إلى المعاش. انقلبت الأحداث رأسًا على عقب حين عاد من البنك وفي يديه خمسون ألف جنيه مكافأة نهاية الخدمة.

تُرى، أين قابلَ الشيطانُ فاوست؟!

رَنَّت في أذنه كلمة صادق البواب للمرة العاشرة:

"اتجوز".

"عم وهبه"، بائع الكتب محدود الحياة، موظف بالبريد نهارًا، صاحب المكتبة مساءً. أدرك حين أمسك الفلوس أن عمره مرَّ دون أن يمارسه، ما جدواه الآن وقد مضى أكثره ولم تبقَ إلا الثمالة! هل يسمح هذا المبلغ بتكثيف الحياة في قالب العمر الرَّتيب؟

لقد كان يقيم في دار المهملات المختصة بالطرود الخاطئة والخطابات الضالة والتي بلا طابع، بينما كانت الحياة تقيم في مكان آخر.

نشأت أجيال الشارع على كتبه وقصصه المصورة. لكن الحياة اختلفت وقلَّ القراء واحتُقر جهده بعد تسطح الأجيال. قضى أكثر من نصف عمره محنيًا على الكتب حتى لم يعد يرفع رأسه ثمَّ هم لا يقبلون الآن إلا على المجلات التافهة وأخبار الفنانين والجنس.. هذا الذي يفاصل منذ ساعة في سبعة جنيهات لديوان المتنبي قد يدفع خمسين جنيهًا حالًا " لو لوحت له "بمجلة سكس".

أصبحت مجلات البلاي بوي والشبكة محورَ مبيعاته ثمَّ أصبح هو نفسه مدمنًا لها. يذهب أحيانا مفعمًا بنشوة وحضور لكن زوجته تعتبر كل شيء معيبًا، حتى إن جاوبته، فالمداعبة عيب والظلام فرض والخروج عن المألوف لا يليق

والنشوة "قلة قيمة" وخروج عن الغرض المحدد.

يتقلّب في ظلمة الغرفة بين صبايا المجلات.. تَعَوّد النوم وهو يمضغ أطياف أجسادهن.. مشدودات كالوتر ناهدات كاليمام، يتقلب للجهة الأخرى فلا يجد بجواره غيرَ الزاهد العبوس.

تكدست الكتبُ داخل المحل.. زهد في ترتيبها حتى أصبح يتحرك في مساحة نصف متر..

زلزله حجم المبلغ، أعياه جسدُه الملقي إلى الخلف وقدماه المقوستان عن احتوائه، شعر بالخجل والنقود تقع فيعيدها لحوزته. حين ذهب إلى حانوته، نظر إليه نظرة حسيرة؛ هنا وفي دار المهملات ضيعت عمري.

أول ما تغير حوله كان معاملة الناس، في أعينهم نظرةٌ جديدة. معظمهم أصبح يحب أن يجالسه ويريد أن يمضي بعض الوقت معه، يقترح بعضهم أنشطة جديدة، يساعده أبناؤهم في رصِّ الكتب وجمعها وفي فتح المحل وغلقه.. أصبح شخصًا مهمًا يجد من يسمعه.

دونهم جميعًا، كان لصادق البواب رأيٌ.. وفوق الرأي خطة:

"طلبك عندي يا بو وهبه، نورا بنت زهدي البواب، معروضه والحوار معايا".

فليتزوج، فليلفظ كتلة الوهن.. لن تعبأ بفراقه كما لا تعبأ بوجوده.

نعم.. إنها تضع الطعام باردًا وتنام قبل أن يعود.

لم يكن هناك أسهل من إيجاد الأسباب.

اعتبر معظم الناس الأمر مزحة؛ زاده ذلك رغبة.

قال أحدهم:

"يا راجل حد يحَضَّر العفريت، من غير ما يعرف يصرفه"..

أما الأسطى محمود، فقد استغرق في نَفس شيشةٍ عميق، ثمَّ اختلط كلامه بدخانه المتدفق؛ وهو يقول:
"أنا عايز اتجوز من يوم ماتجوزت".
وقال سامح مُحدثًا المدى:
"كَتمَ الحياة يؤدي إلى انفجار، أو انتحار، مَن لم يمت بالعشق مات جيفة".
أحاديثهم تلهبه وأسئلتهم ترضيه؛ لأول مرة يكون مثارَ جدال الناس.
دبَّرَ لها البواب مرورًا متفقًا عليه عصر اليوم التالي.
ألبسوها ثوبًا زاهيًا أصفر به أثر خياطة بلون أزرق، أحكموا ربط خصرها بشريطة بنية.
انتابته صعقةٌ كهربية حين مرَّت، اشتعل الدم في عروقه، انبعث حيًا.
"أهذه لي؟". ملفوفة وشهية، خجلها الطفولي جعلها أشهى، حتى اتساخ أصابعها في "الشبشب" كان مثيرًا.
وقفت أمامه، تجوَّلت عيناها بين الكتب.. رآها، ناصعة كالنهار وقد أكدى بياضه شحوب الغروب في وهنٍ مثير، لدِنةً كورقة شجر. أراد أن يطير في الهواء.. هذه أسطورة لم يحتويها كتاب من قبل.. وردة يانعة.. كاد ينفجر؛ إذا كان الله قادرًا على بعث الموتى، فلماذا لا يحقق بعض معجزاته في الأحياء؟ مجرد تخيلها يورق الأزهارَ الذابلة ويحيي موات القلب ويشد الوتد. بهذه، سوف يهزم حرمان السنين بضربة واحدة ويسطر بنفسه البقية الباقية في كتاب حياته، لتكن حياة.
امتدت يداها لمجلة ميكي.. سألته عن قصص لسونيا.. أخرج من جيبه نضارة جديدة وسألها:
"مَن؟".

لاحظت أنه فقد سنَّين من أسنانه فكادت تضحك.
تمالكت طفولتها وابتسمت ثمَّ أجابت:
"الساحرة الشريرة".

بعد أسبوع، كان "عم وهبه"، ذو الستين عامًا، ماضيًا في إجراءات الزواج من نورا، ذات الخمسة عشر ربيعًا.
"مش مشكلة حكاية السن.. ولا تشغل بالك، بميتين جنيه المحامي يسننها وزيُّهم لطبيب الصحة".

لم يكن في ذلك الوقت يتوقف أمام الحسابات كثيرًا.. ما ضرِّي لو أنفقتها جميعًا في سبيل ليلة واحدة؟ خمسة عشر عامًا.. حتة الملبن. ستصبح الصور من لحم ودم وعسل يذوب في فمي.. لن أحتسيها دفعة واحدة. دسَّ نفسه بين الكتب يبحث لها عن كتاب قد يعجبها، سونيا وبندق وعم دهب، طالت يداه قصةً لذئبٍ ينفخ بيت الخنازير الصغار محاولًا أن يهدمه.
توقف لحظة يتفكر.. هل الأمر حقيقة؟ هل يكافئه القدر؟ أين كنت وأين كانت الحياة! أيوافق أهلها؟

بحكم مهنتهم، لم يكن أهلها يفكرون في غير السمسرة؛ مئة جنيهٍ في نهاية كل شهر ستمثل لهم فوق ما يحلمون، لتكن هذه هي الأجرة.

بالفعل، كان الظاهر أن طلبات أهل الفتاة لا تتعدى السمسرة؛ جبل البوابين المبنيُّ من تراب، كان الأمر لديهم ببساطة: "خدها.. أكّلها وريحنا".

خمسة محشورون في شبه حجرة على شكل مثلث قاعدته تعجز عن احتواء إنسي، لا يستطيع الرجل إذا نام وتمدد أن يفرد قدميه فيها لقرب الحوائط.. المسجد جزء مستقطع من العمارة.. أخذوا من مساحة الحجرة لصالح المسجد.. ليتهم حتى تصدقوا بمسافة بسيطة لساق نائم.

فلتذهب نورا قبل أن تطول قدماها.. نتسول حمامات

الناس.. لا يوجد ساكن في العمارة لم تأكلها عيناه، حتى الذاهبون إلى المسجد لا بد لهم من نظرة عابرة؛ لعلهم يصادفون جسدًا غافلًا لقاصر تمسح مدخل العمارة.. ربما ترث المحل بعد قليل.

تسرب الخبرُ إلى زوجته قبل الدخلة بيومين.. جاءت بإخوتها..

جلسة لمدة ساعة. حضرها مضطرًا وشاردًا ومستندًا بالأسطى محمود الذي أيده منذ البداية كأنه قضية عمره.. حماسته بقيت لغزًا.

لم تُسفر الجلسة عن شيء ذي بال.. كان الأمر بالنسبة لهم هامشيًا ورتيبًا.. مجرد صياح من هنا وهناك.. كلام لملء الفراغات.. لكل جالسٍ كلمة، وعم محمود يدفع ويدافع عنه بشراسة:

"الراجل مخالفش شرع ربنا".

سأل أحكمُهم:

"هو اشمعنى شرع ربنا بيطلع دايمًا ف الجوازة التانية؟ واشمعنى لما ربنا بيكرم الواحد بفلوس!".

كانت حياته معها خالية من الأحداث خلال ثلاثين عامًا. لم ينجبا، لكنهما "عايشين وخلاص" حياة مختبئة بلا مشاكل ولا وفاق.. سلحفاة داخل درقتها.. لم يكن يعيش معها سوى في نصف متر.. لعل هذه هي المرة الأولى أن تكون حياتُهما محلَ نقاش.. جلسوا وهاجوا افتعالا وادعاءً.

كان معهم بنصف قلب والنصف الآخر في شبق لا ينطفئ.. كانت روحه قد تركتهم منذ اللحظة التي أشعلته الذكرى فامتلأ بالشوق واللهفة.. التفاحة المستوية، نعومة الالتصاق ببكرٍ دافئة، واحتواء نهد في أول عصور نهضته.. قوامها المفرود، عنقها الرشيق، ساقاها الطويلتان.. "يا لبن يا

قشطة".. لو كانت متعتي بها ليوم واحد لكانت مكافأة على حرمان العمر وثمنًا لانزوائي كصفحة مزوية في كتاب لا يقرأه أحد.. لن تحتويه معها حدود.. طوال الجلسة لم تفارق خياله صورتها وهو جالس على كرسي وثير وهي تتحرك أمامه عارية ببشرتها الحليبية الناعمة كجلد الوليد.. لن يسمح لها أن تطفئ النور، لن يسمح لها أن تخجل أو تحرمه من روعة التفاصيل ولذة الطريق.. الوقت ثمين وليس جسدها تجعيدة واحدة.. يكفي ما ضاع. وطأ لها في خياله مرفأ وسريرًا.. انفردت ساقاه وعاد فتىً محمومَ الهواجس.. أخلى لها كل الأماكن والبقاع، استشرفت عيناه ودماؤه اللقاء.. لم يكن بينهم وهم يتداولون القصة التي عبرت والأحداث التي مضت، وامرأة طردتها روحه وعافَتها نفسه إلى الأبد.

أما هي، زوجته، فقد أرادت أن تبدو متعالية على الأمر كله.. لم يكن يزعجها ويحرجها ويحرقها غير ترديده إنها "مش نافعاه".

أسفرت الجلسة عن اتفاق يوحي بالتراضي: يتزوج في شقة أخرى، ومائتا جنيهٍ نفقة شهرية.. اشترطت ألا يعود إذا تركته الجديدة؛ لم تكن تريد أن تراه مرة أخرى.

من يعود لسونيا أيتها الكاهنة؟!

انزوى به أحدهم في محاولة أخيرة، ذكَّره أن توثّب الروح في جسد متهالك ليس معناه استجابة الجسد، وأنه لا يستطيع القفز إلى زمن قد خرج منه.. لكنه أعاره أذنًا غير واعية والقلب في صمم.

استغرقه الحلم فلم يعد يرى سواه.. كلهم يرونه الآن ويحلّلون ويعلّلون.. أصبح كتابًا يقرأه الجميع ويعقدون من أجله الندوات.. لم يكن يزعجه إلا ضحكة سعدون الرقّاء المجلجلة، واهتزازه كأنه سبعة يضحكون معًا؛ وهو يقول:

"يا عم وهبه.. لاهتم ميعرفش ياكل تفاح".
تمنى أن تبتلعه الأرض.
ظل الأسطى محمود بجواره.. أخذ منه أربعين جنيهًا واشترى له علبة فياجرا:
"أهو دا اللي هيخليك توقّع ف العفريت ويقولك شبيك لبيك".
ذهب ليلًا ليأخذ العروس ومعه الأسطى محمود، حكى فيما بعد أن أهلها صمّموا أن تكون الدخلة "بلدي".. وأن صراخها كان مدويًا وشهيًا.
قالت الأم لإحدى جاراتها: "عشان محدش يفكر إن بضاعتنَا معيوبة".
هدأت الأمور في اليوم التالي. أُغلق المحل أسبوعًا كاملًا.
شَيَّشَ الأسطى محمود كما لم يشيّش من قبل وأحرق الحجر غير مرة فاشتعل نارًا. كان أكثر المتشوقين لمعرفة باقي الفصول.

*****

أسلمت له جسدًا غير مبالٍ.. هالها مشهد الرجل الكبير المجهد مقوس الساقين وهو يحبو نحوها، يزحف حولها ويدور، تحيّره البدايات، ثمَّ يتوه في منطقة العذاب بين الموت والحياة، ويتابع سؤالًا في جسده لا يبادله الجواب.. جسدان لا يباليان به: جسدها البعيد القريب وجسده القريب البعيد، يعريها وينشب كفيه ويتعرق ويرتعش وتتلاحق أنفاسه ويرهقها السأم، ثمَّ ينتهي قبل أن يبدأ.. يتشنج ثمَّ يرتمي كالبيت المنهار بعد أن يغرقها بعرقه ولزجه.
في نفس اللحظة، اقتحم الشارع زهدي البواب في ثقة لم نعهدْها من قبل في خطواته.. فتح المحل ونظّفه وأعاد ترتيب الكتب حسب الوزن والحجم ثمَّ أخذ ينادي بصوت

جهوري منفر:
"أي كتاب بنص جنيه".
وقف فوق تلال الكتب بقدميه الحافيتين ذات الأصابع الطويلة والأظافر القذرة.. أخذ يرميها أمام المحل.. كانت إحدى قدميه فوق ديوان المتنبي وهو يلقي بمجلد "الجريمة والعقاب". ظهر عم وهبة من بعيد.
عدوت نحوه، أردت أن أحدثه عن مذبحة الكتب:
"عم وهبه.. الجريمة والعقاب اتباع بنص جنيه".
لم ينظر إلي.. أشاح بيدٍ لاهية، كان منهكًا وأشعث.. توجه إلى عم محمود بلهفة.. أراد أن يحدثه على انفراد.
كان النجار يعاني من رداءة المنشار على قطعة الخشب وقد أحكمت عليها "المنجلة" غلقًا غير مجدٍ.
دخل الورشة وقد ضم حاجبيه امتعاضًا وطفح وجهه مرارًا.. شاخَ وتهدَّل. عاتبه بصوت عالٍ على رداءة الأقراص وقلة فاعليتها.
لم يتعد حتى الآن الفرز واللهاث.. لم يستطع الذئب أن يثقب بيت الخنازير.

*****

حاول النجار أن يستوضح الأمر لكن عم وهبة سكت وتوجه إلى الشيشة ورفع النار عن الحجر بيديه وهو يندب:
"مفيش نار يا عم محمود.. الفحم مطفي".
"لا.. بس هو الفحم رطب شويه.. متقلقش، أكيد في حل".
أعطاه مالًا للبحث عن نوع أفضل..
اشترى كل بضاعة يعرفها: فياجرا، جوزة الطيب، "عين الكتكوت". دفع من ماله، كان صوته يشبه الرجاء وهو يطلب منه أن يخبره بالنتيجة.
استعان النجار بخدمات زير نساء شارعنا "سلمان

رشيد" الذي اصطحبه في تجربة ميدانية عند ناهد، صاحبة البوتيك المتاحة دائمًا والتي تمنح دون تردد، ذهب به إليها كمن يجرّ تلميذًا.. تبادل معها نكاتٍ فاحشة، وقف بينهما غير مصدق ما يسمع. لم يصدق أنّ امرأة ورجلًا يمكن أن يتبادلا مثل هذا الحديث.

*****

عندما أُغلِقَ بابُ الشقة عليهما، كانت تسبقه بخطوات في مدخل شقتها الضيق، تبعها كطفل تائه. فاجَأته بخطوة كان يظنها ستستغرق الليل كله.. تركت ثوبها ليسقط، تعرّت تمامًا في لحظة واحدة.. كانهمار "السّقط "من بطن عجل ذبيح.. متمرسة في كسب الوقت كانت، وكان خلفها تمامًا، أحس بضخامة الاختبار، أربكته جسارتها وغياب التمهيد، تقزّزت نفسه من الرائحة الغريبة للجلد الرخيص، لم تتعر زوجته بهذه الجسارة طوال ثلاثين عامًا.. صدمه العهر فارتجّ داخله.. اندفع نحو الباب صارخًا:

"لا لا لا.. إلا الحرام".

قصّت في اليوم التالي على سلمان ساخرة هروبه...

شعر أثناء عودته بمتعة تفوق وطء كل حسناوات الأرض وشعر لأول مرة بالهواء والبراح... تفكر في حاله وتقبله.. قرر في لحظة صدق أن يُسَرّحَ الفتاة بإحسان. أدرك حكمة "توفيق الحكيم" حين استحال لقاء "ميشلينيا" العائد من زمن مضى ببريسكا التي أثمرتها الحياة الجديدة[1]. لم يستطع الذئب، رغم كل الجهد، أن يلج الجدار.. نفخ حتى كادت رئتاه تنفجران.. قاءَ الثعلب كل ما ابتلع فعادت الأغنام..

أدرك أنه لن يصحَ في الحياة إلا ما وافق عليه الزمن..

[1] مسرحية أهل الكهف. توفيق الحكيم.

اعتذرَ لها واحتضنها كأب ثمَّ أرسلها إلى أهلها، استرضاها بعشرة آلاف جنيه.. لم تستطع أن تخفي فرحًا طفوليًا.. انطلقت كعصفور يتوق للبراح.

*****

في الأسبوع الرابع، كان جالسًا على باب محله عصرًا، ناظرًا إلى الفراغ والبيوت التي تحيط بالظل كقوسين.

وفي الليل، افترش أرضية المحل شبه الخالي إلا من مصباح صغير خافت.. ونام.

*****

ميـراث اللهـاث

عندما أنهى دراسته الجامعية، تزامن ذلك مع إدراكه للاجدوى، بكالوريوس اللغة العربية الذي يحمله لم يكفل له الجدارة، قراءة مئات الكتب منحته إحباطًا صادمًا حين واجه العالم.

"يتحول كل شيء في النهاية إلى البحث عن "الجنيه" أو "الجندي" كما يسميه الأسطى محمود النجار.

"المسؤولية كرباج على ضهرنا، نجري دائمًا، لازم جنود".

حاول أن يمنح العلم فرصةً أخرى؛ ليدرسَ اللغة الإنجليزية لعلها تمنحه التميز حين يجمع لغتين، عكف على الكتب، حفظ الكلمات، تعلم كيفية نطقها، أجاد التحاور.

"ليقاتل الآن بسلاحين أمام جنود الأسطى محمود!".

عندما تنهي الدراسة، تصبح مطالبًا بالإنتاج. أبوك الخيّاط بذل الروح والنفس لكي تتعلم، وها قد فعلت، لكنك لا تستطيع أن تسعده بأن تكون شيئًا. تتحدث جيدًا مع الناس، ترطن بالإنجليزية وتكتب الشعر، لكنك لا تستطيع أن تحمل العبء عنه. دكانه الصغير البسيط، تشعرك وضاعته أنه لم ينفق عليه مليمًا واحدًا بُغية التطوير، المرايا المكسورة وكل أنواع العناء.. كنفسه المفتتة عليكم، "بنك التفصيل" المتهالك، "المازورة" التي انمحت علاماتها من أثر يديه.

لم يشترِ محلًا أكبر، كما لم يستأجر شقة أكثر اتساعًا من هذه التي تئن من الكتل اللحمية، كان محكومًا عليه دائمًا إن يقنع بالقليل والضيق والمتاح، دائمًا يَجِدُّ الخطى، دائمًا لا تراه، تشعر أحيانًا بلمس شفتيه على خد صبي نائم، لكن النوم أجمل. يُقَبلك مسرعا ويمضي؛ لأن السياط فوق الظهر والأفواه جائعة والجنود دائمة الكر والفرار.

يحاول العمل بالتدريس لكن الأبواب تُغلق تباعًا.. دائمًا في اللحظة الأخيرة وبعد اجتياز الاختبارات والمقابلات.. قبل أن يعلنوه الأول على الجميع يظهر المَرضِيُ عنه.. كارت صغير ومهاتفة فيتسلم العمل فورًا.

لا يُشعره أبوه بعبء، يظل صامتًا ومسرعًا ومرهقًا وجادًا، يأتي وهو نائم ويمضي وهو نائم. قلَّما ضمه إلى حضنه، ليس إلا مسَّ قبلة على خد صبي نائم، لقلة اللقيا، ولأن السياط والأفواه والجنود دومًا في صراع بلا نهاية.

ثمَّ يسافر الأب إلى البلاد الجافة بعيدا عن كل ما يحب، مُرسلًا في المدى، مقذوفًا بلا هوادة، متكسرًا على كل الصخور.

لكنه يموت بعيدًا.. وحيدًا مفردًا كالأفيال العمالقة.. تزوي بعيدًا حيث لا يراها أحد.. لتموت.

لعلك كنت فكرته الأخيرة، لعله أرسل قبلة في المدى على خد الصبي ولم يستيقظ الغرُّ؛ لأن النوم أجمل.

لعله طلب منك السماح، لأنه سيتركك معتقدًا أن الموت خيانة.

محروم أنت من تراب قبره.. لا تدري هل يقرأون على قبر الغريب الفاتحة! هل وسدوه التراب أم فوق جبال الأولمب؟ ما أقسى أن تمنعك التكاليف عن جثمانه، حتى عن قبلة فوق جبين ميت.

لا بد من مواصلة الجهد، لا وقت لمربوط في ساقية أن يحزن! ليسقط البحث عن التدريس مؤقتًا؛ أريد جنودًا بجانبي ومعي وحولي.

تعلَّم الخياطة متعجلًا مستندًا على خبرة قليلة حين كان يساعد والده وعلى حب الزبائن لأبيه الراحل وتجاوزهم عن أخطائه ومساعدات الجار التي لا تنتهي، لم يعد لديه الوقت

للبحث عن مكان لعقله.

سارت المركب فوق أمواج متلاطمة، أمسك وأخوه دفتيها، غير أن أخاه لم يستطع أن يتخلى عن حلمه القانوني وادخر نفسه قليلًا لما بعد.

انخرط بين "الأسطوات". صاحَبَ الإبرة والخيط حتى كاد يختنق وصورة أبيه لا تفارقه، كان النموذج الذي لا يريد أن يحتذيه.

يخاف أن يكون كل ما تركه له هو ميراث اللهاث حول الجنود.. لا بد أن تتوقف الأشياء عند حد.. لن يتركها حتى ترميه في تراب غريب.

تزوجت الأختان، رغم سعادته عند زواج أخراهما، شعر بالفراغ؛ كتربة تجوفت حين خرج منها جذع شجرة حبيب.. استبقى أمه معه.. بقيت كالنور في ظلمة الليالي.

بعد زواجهما، انتابته رغبة شديدة في البعد، تسربت إليه جفوة غريبة تجاههن لا يدري كنهها ولا مصدرها، مارسها بلا تفسير، ساعده في ذلك أن أخاه بدأ يمارس حنانه المدّخر عليهم وعلى أمه -كان الحنان هو ميراث هذه الأسرة الذي لا ينضب -

لم ينقطع حنينه إلى الكتب، لكنه امتنع عنها معزّيًا نفسه بإبداع الحياة؛ أراد أن يكون عمره نفسه قصيدة.

طلب صديقه المعيد في قسم اللغة الصينية مساعدته في إتمام بحث مقارنة مترادفات بين اللغة العربية والصينية.. كان يعرف عنه ما لا يعرفه غيره، ربما طلب مساعدته ليثبت له أنه أفضل مما يظن، أراد أن يخرجه من كبوته بحنان ويوجهه إلى حيث يجد ذاته، بحثا معًا، نشط عقله، بُعثت في نفسه قوى كامنة أشعرته بالمعنى الغائب والقيمة المفقودة، شعر بنشوة الحياة. كانت هذه اللحظات المبدعة أشد كثافة

وجمالًا وغنىً من تفصيل ألف بدلة، خرج مرة أخرى من معركة الجنود إلى معركة العقل.

كانت فرحته بكتاب صاحبه عظيمة.. كان يتمنى أن يذكرَه بكلمة. لكنه أعطاه من مالًا وفيرًا.

واتته الفرصة مرة أخرى حين أتاه زبون لتفصيل بنطلون لصديقه الأمريكي، تحدَّث معه بلغته وبطلاقة، كان يدرس تاريخ الموسيقى العربية في القرون الوسطى، رأى الأمريكي استفادة خاطفة للطرفين.

اتفقا أن يكون مُدرسَه في اللغة العربية، ترجَمَا معا كتبًا كثيرة، سوف ينشر البحث باللغة الإنجليزية، الموسيقى العربية في القرن الثاني عشر والثالث عشر، ترجم له قصة من قصصه إلى الإنجليزية وتقاضى منه أجرًا مبهرًا، وكان ذلك ثمن تجاهله عندما نُشر البحث في كتاب، واختفى الأمريكي بعد توهج الحلم للأبد.

كان أمر الخِياطة إلى زوال. السُّوقُ يخذله، أصبحت من التقاليد القديمة وأصبح رزقها كأنما يمر من سَمِ الخِياط. المقاومة تخبو شيئًا فشيئًا، الملابس الجاهزة أجود وأرخص وأسرع، حلمه بشراء ماكينة خياطة جديدة لا يستطيع تحقيقه لتواصل الأعباء.

ما زالت الحياة في تصميمها الثابت على تجميد عقله وروحه المتوثبة، بدأ تصميمه هو نفسه في الوهن، بدأ السوق في الترنح والكساد، أصبح إمساك العصا من المنتصف مستحيلًا وإلا سيفقد الطرفين.. شعر بنهاية كل شيء حين حزمَ كتبه التي جمعها طول عمره في حقيبة سفر من حقائب أبيه.

تزوج، وقد أوشك القطار أن يغادر، من قريبة له. ربما كانت الشيء الوحيد الذي أشعره بروعة الحياة، تزوجها قبل أن تحين لحظة أخيرة يفوز فيها محظيّ جديد، شاركته شظف

العيش ولينه وأنجب طفلين جميلين.. لكن الزواج والإنجاب مع ضيق الحال كانا عبئًا ضَعفُ عنه.. أصبح الميل كل الميل إلى معركة الجنود.

عندما أتَمَّ الأربعين، وافاه صديق بعمل في إحدى الدول الجافة.. لم يستطع الرفض؛ في عنقه الآن أربعة أفواه مفتوحة.. والسياط خلف الظهر والجنود توشك أن تكون قد انسحبت من المعركة...

لم يكن خيارٌ آخر هناك...

دخل على طفليه ليلة السفر، خلفه زوجته تبكي وهو يكتم الدموع ويستمهل الزمن، كان مسرعًا ومرهقًا وحائرًا.

كان الطفلان نائمين.. قَبّلهما.. تقلّب الصغير.. مضى إلى رحلته...

كاد الصغير يستيقظ لكنه لم يقم.. لأن النوم أجمل.

*****

الثـــلاثـــة

ليس أسوأ في شارعنا من ثلاثٍ، يخالفون فطرته ويدنسون نقاءه، يخرجون هفواته وسقطاته من حيز الأخطاء التي يفرضها الظرف والفطرة أو اللذة العارضة إلى ساحة الإثم والقبح والبذاءة:

الأول "صلاح السادومي"، عامل قذر جعد الشعر، وافدٌ وفدَ إلى شارعنا فاحتواه، لم نعرف له أصلًا ينتمي إليه.. كان على مشارف العشرين حين جاء للعمل بمحل الأسطى صبحي، أكثر أهل شارعنا إيواءً للعابرين والباحثين عن فرص عمل ومبيت. غامض كالبحر، صامت كالليل، لامع العينين كالثعبان، ينام ويصحو ويأكل في المحل الصغير المدفون تحت الأرض، شديد الحذر والجبن، طيب الوجه سمح السمرة نهارًا، لكنه في الليل أسود مرعب قذر، متعته تعذيب القطط وولوج الصبيان. يستقطبهم بدعوى العطف والإيواء وتعليمهم الصنعة.. رائحته الكريهة أهون من المبيت في الشارع بين الذئاب واللصوص.

لكنه شيئًا فشيئًا يتحول لكل ما يمكن أن يحتويه الشارع من قبح...

يُغلق المحل بباب حديدي والليل دامس، تتحول عيناه إلى لون أحمر لاهب ومخيف، تغلظ نبرة صوته، وينتشر شعره الجعد مترامي الأطرا يستقطبهم ف.. بيده سلك كهربائي ولا ملاذ.. إما التسليم وإما اللسع..

صيده غالبًا من الضعفاء والضائعين غير ذوي الأهل والشوكة.

من بينهم عصام، طفل توقف عقله بين البلاهة والذكاء فلم يحُزْ أيًا منهما، في التاسعة من عمره، ضيق العينين،

ترتيب أسنانه مضطرب، فكه الأسفل بارز، كتلة من اللامعقول والبهجة، يعشق الرقص والموسيقى. إذا استمع إلى الغناء في أي مكان لا يستطيع أحدٌ أن يوقف طلاقته وروعة صباه وحب الحياة. يعمل أبوه حارسًا في النادي ليلًا ويستعين على المعايش نهارًا ببيع أنابيب الغاز، قلبه شديد التناقض؛ ليّنٌ مع كل الناس، شديد القسوة مع ابنه وابنته التي تكبره بعامين، أوقف عصام عن الذهاب إلى المدرسة بحجة أنه لا رجاء منه، واختار له أن يتعلم صنعة..

في زمن ما، كانت هذه موضة يتباهى بها الآباء، يذهب أحدهم إلى المعلم أو الأسطى بابنه؛ فيقول:
"خذه؛ علمه ورَبيه، أنا عايزه يتعلم؛ عايزه يبقى راجل؛ يكسب من عرق جبينه.. اكسر رجله لو عارضك.. أنا نفسي ماليش شأن بيه".

كلما عاد الابن مرهقًا صامتًا، كان ذلك في عين أبيه مقياسًا للكفاءة وضراوة الأعمال، وكلما حنَّت عليه أخته "صابحه"، عنّفها الأب لعودتها به إلى عهد الرخاوة. تكبره صابحة بقليل.. اتخذت دور الأم فور موت أمها، صارت وهي ابنة الثانية عشرة مسئولةعن رجلٍ شديد الجفوة، رغم مهادنته لكل شيء خارج حدود الغرفة، وصبي يُقسر على هجر الصبا قسرًا، مثلها.

يحب الجميع عصام ويلقبونه بالشيخ. ويخصّ هو بالمحبة شريف السبّاك، شابًا وحيدًا بلا أهل ولا رفاق.. يجالسه كل يوم بعد المغرب.. بعد انتهاء عمله.

خَيَّرَه شريف يومًا فيما يحب أن يلعب فامتعض وجه عصام وارتعب، اختفت ابتسامة كانت تسري في وجهه كالنور.. انتابته رجفة؛ ثمَّ قال:
"بلاش لعبة تَنْي المعيز ع القَنَا".

أراد الشكاية.. عذاب الاقتحام.. قسوة التدافع الذي يمزق الحشا.. الألم الحاد الذي لا شيء مثله، ليس مسموحًا له أن يصرخ، التحمل أو سلك كهرباء، امتناع الليل عن أي نجدة، وحشة الظلام، لا أحد يمر فينقذه، القبض كالنمر تهتك مخالبه الفريسة، الدفقات الساخنة.. قذارة الإلقاء كمنديل مستعمل، قسوة الفراغ الذي يملأ التجويف كاللهب.

اشتعل شريف، الذي لم يتعد السادسة عشر، غضبًا. لم ينتبه، وهو ينطلق نحو صلاح، إلى أن ساقه ارتطمت بماسورة ملقية على الأرض، لم يبصر ربيع الذي كان منتصبًا في نشوة في محل ناهد وهي جاثية على ركبتيها خلف "فاترينة" تخفيها. جذب السادومي من جماع قميصه خارج الجُحر.. خنقه ثمَّ ألقاه بالخارج.. نظر صلاح مستوضحًا ومحرجًا فعاجله شريف بلطمة أهدرت الباقي من كرامته.. ثنى ركبته ثمَّ رطمه بها لأعلى فانتفض من خصيتيه.. استسلم بعدها كالذبيح لكل ما تلقى من غضب وركل.. ضربه شريف بقسوة لا تناسب طبيعته.. أشبع وجهه لكمًا وركلًا وبصقًا. صاح وهو يضربه:

"احنا مش في الزريبة يابن الزانيه".

حتى حين استسلم صلاح السادومي، الذي أشرف على الثلاثين، بلا حراك، لم يتوقف شريف عن ضربه ولم يستطع أحد أن يثنيه، كان مشتعلا كلهبٍ.. لم يوقفه أن رأى دماءً تسيل من ساقه.. أحاطهما جمع من الأطفال والكبار. همهموا حولهما لكن أحدًا لم يتدخل.

انتشى مسعود الرايق لمرآه الغاضب.. كان يتوق لرؤية شاب مشتعل حماسًا وبطشًا يتأجج نارًا، مخلصًا لغضبه لا ترده عنه أي اعتبارات.. تهلل كمشجع بفوز فريقه.. وأقبل ربيع من خلفه ليخلص صلاح من يد شريف. لطمه أيضًا ثمَّ وجه كلامه لصلاح:

"لو لمست عصام تاني هادفنك صاحي يا ابن الكلب".

قبل الغروب، جاء "عم سيد" حارس النادي وصاح في شريف بعنف:

"انت ماليكش شأن بعصام ابني واصل".

ترفّعت نفس شريف عن ذكر ما يعرف؛ لكنه قال: "شَغَله معايا".

"يا عم قلنا مليكش صالح بيه.. ماتتكلموا يا عالم، هابقى عايش وعيتحكم ف ولدي؟".

قالت سامية في حنان:

"هاتوا معايا يا عم سيد.. هيبقى زي أميرة وعلاء".

أجابها بنغمة معتذرة:

"ماتآخذنيش يا ست سامية.. إحنا ايدينا خشنه، معندناش صعيدي يشتغل كوافير".

نظر إلى سليم معتذرًا بعينيه.

في آخر لقاء بين شريف وعصام، كانا يتحدثان في منطقة ساطعة الشمس يتبادلان ركلَ ورقةٍ مكورة.. ظهر صلاح السادومي من منطقة ظليلة عائدًا من تدخين حجر شيشة لدى ضياء القهوجي.. أدهشَ شريف تمامًا -في هذه اللحظة ولأشهر قادمة هي الباقي من عمره- توجَّهَ عصام كالمنوم نحو صلاح، خاضعًا ككلب.. كانت الورقة المكورة عند قدمه تنتظر أن يركلها فتركها دون أن يلتفت إلى الخلف.

مساحة النادي الذي يحرسه عم سيد تزيد على ثلاثة فدادين على شكل مربع تمتد أضلاعه من سكة راتب التي كانت قديمًا مسكنًا للباشوات. لم يكن للأتوبيس الذي يحتوي العامة أن يمر بها لئلا يزعجهم، والضلع الآخر للنادي شارع مصطفى فاضل الذي أضاءه عماد عفت على نفقته الخاصة يوم رأى أنَّ نورًا يمشي الناس فيه خيرٌ من ظلام يتبادلون فيه

العطب، والضلع الثالث هو الشارع الذي أوله قسم الدرب الأحمر وينتهي بشارع بور سعيد، مرورًا بالمدرسة الخديوية العسكرية التليدة التي تكون الضلع الرابع أيضًا ومدرسة الفتح الابتدائية التي كان ممكنًا أن يلتحق بها عصام لولا حجة الرجاء غير المأمول سابقة الذكر..

في هذه المساحة الشاسعة وقف النادي زاخرًا بكل الألعاب، ومنه خرج بطل العالم في الكراتيه والذي كان أبوه مجرد عامل رخام بسيط، لكنه يؤمن بالحرية ويعطي بلا حدود، وأم أسطورية فرّغت نفسها لعشق بنيها. مثلان يُضربان للعطاء بلا حدود والمنح بلا نهاية.. وبه رياضات أخرى يتناوبها كل أطفال الحلمية.. عدا عصام...

"أمك وخَواتَك مش لاجيين العيش الحاف وانت هنا عايز تلعب؟".

كثيرًا ما تلصص من شق طولي صغير في باب الحجرة على اللاعبين.. جرى بخياله بينهم وركل الكرة وأحرز الأهداف، لاكم مع الملاكمين ومارس نفس التمارين التي يطلبها كل مدرب -وفق ما تسمح به مساحة الغرفة الضيقة وقدرات بدنه الأقرب للإعاقة- كان يعلم أنه ليس مثلهم وأن الأمر لن يمر بخير لو عرف أبوه "الطيور التي تولد في القفص، تعتقد أن الطيران جريمة."[١١].

توجّه إليه بطل العالم في الكراتيه "مجدي ممدوح" يوم أقاموا حفلًا لفوزه بالبطولة، منحه بدلته التي تغلّب بها على بطل فرنسا في نهائي كأس العالم والتي تمناها الأكابر والأصاغر من أبناء الحي واحتضنه وأصرّ أن يتصور معه "سيلفي".

---

[١] اليخاندرو جورسكي

"إنه أيقونة حظي لكنه قليل الحظ.. كان ممكنًا أن يكون مكاني وأكون مكانه.".

رقصَا معًا على أنغام صاخبة وتحلق الجميع حولهما وصنعا بهجة لا شيء مثلها.. باع أبوه البدلة في اليوم التالي بثمن كبير لمدير النادي.

*****

الثانية ناهد.. أرسلها الشيطان لتكون اختبارًا لنا جميعًا..

لم يُنجِّني منها إلا مرهم ممدوح.. سخونة شديدة؛ لكنها كالضجيج بلا طحن.

زوجها "مسعود الرايق"؛ ذلك النوع من الرجال الذي ائتُمرَ منذ أول الزواج "انه ميرَوِّحش غير لما يتصل".. تُحدد له "لستة الطلبات" وموعد الوصول بالضبط.. لهما "بوتيك" على ناصية الشارع، يقف فيه عصرًا وتفتحه هي صباحًا. يقف هذا البوتيك فاصلًا بين شارعين لكنه أصبح تأريخًا يفصل بين عالمين، الشارع ما قبل ناهد والشارع بعد أن وُجدت.

في وقت اللقيا لا تسمع غير صوتها الجهوري وهي تكيل له السباب ولا يزيد هو على أن ينكس رأسه في الأرض مدليًا شفته السفلى.

بالأمس، عاد إلى منزله قبل الموعد المضروب له بعشر دقائق.. كانت مجهدة ومرهقة "ومبسوطة"، لم تشأ أن تكدر صفو مزاجها بالعتاب، انتهرته فانتهر؛ وعدها ألا يكرر خطأه.. ضحك في النهاية؛ وهو يسألها:

"المهم.. انتي بتحبيني؟".

ضحكت؛ ثمَّ قالت: "طب روح ذاكر للعيال".

الولدان شديدًا التعلق والشبه بأبيهما، في عين الصغير دائمًا خوف بالغ عليه، شديد الالتصاق به، غير إن الأكبر ذا

التسع سنوات شديد الصمت والاكتئاب. يرهقه الحبس في الغرفة مع أخيه، سئم من كل الألعاب وهو حبيس.. الأصوات خارج الغرفة، صوت التلفاز العالي لفيلم كارتوني سخيف، التغيرات التي يراها حين يخرج.. شعرها المنكوش.. ممنوع الأسئلة.. هو أيضًا لا يألف من شارعنا غير شريف، السَّبّاك الصغير.

في كل يوم كان لها زوار، وكانت تطبع على يد كل زائر قبلة عند الباب قبل الرحيل. فإن لم تجدْ، تستدعي الكهربائي أو النجار لإصلاح عطل في الشقة. في طريقها للبيت أيضًا، قد تَطلب من رجلٍ مطلٍ من شرفته أن تستعمل الحمّام، وقد ينتهي الأمر بأن تقبل يده.. تلك القبلة التي كشفت الجميع فيما بعد.

لم تكن ذات حُسنٍ، لكن الشوارع جوعى وكانت توازي جوعَ الشوارع كلها نهمًا.

عندما وصلت شارعنا للمرة الأولى، كان وجهها شديدَ الصرامة؛ كمن عقد العزم على بدء صفحة جديدة بحماس، حجابها متزمت، جافة النظرة، ظلت صامدة أسبوعًا بطوله يتحيّر الناس في أمر وجهها العابس، كان زوجها مسعود أيضًا عابسًا وصارمًا وبعيدًا.. نظفا البوتيك بعناية ورصا البضاعة ثمَّ جلسا لا يكلمان أحدًا.. لكنها في الأيام التالية عرفت وأوصت زوجها أن سلمان رشيد رجل يستحق الثقة؛ ثمَّ "فهد الاستورجي"؛ ثمَّ سعيد ثمَّ قاسم ثمَّ صاحب المقهى ثمَّ الجيران الطيبين الذي يهبونها حماماتهم.. لكنها كانت تكره عم محمود دون الناس جميعًا.

"راجل وشه مكشوف.. مبيختشيش".

أكثر من تجنبها في شارعنا كان الميكانيكي فيصل.. رغم أن ورشته ملاصقة للبوتيك، إلا أنه ظل يعاملها كجُرم

ويعزف عن أي تواصل.. كان شديد النظام، يحلق يوم سبت ذقنه والسبت التالي شعره وذقنه، في سبت الذقن يدفع خمسة جنيهات والسبت التالي عشرة. زرع أمام ورشته شجرة.. كان يعشق تأملها وتعهدها، يرشّها بالخرطوم عند كل غروب.. أحاط أسفلها بدائرة طينية تحتوي جذرها كما لو كانت تحتضنه، سوَّرَها بسور من الطوب الأحمر. كان تأمل الجذع الخشبي الممتد في صلابة والمتوغل في الطين الندي عند الغروب ينتهي به مغمضًا عينيه بين النوم واليقظة، حالمًا في الخيال الذي يستغرقه، يشعر بقبضة الطين الرطيبة وصلابة الجذر. يوشك أن يسمع لالتقائهما غنجًا. ثمَّ يفتح عينيه ناظرًا حوله في ريبة؛ خشية أن يكون أحدٌ رآه.

ذهبت تحدثه عند الغروب، سألته عن ثمن إحدى السيارات، استدارت تريه واحدةً تريد أن تقتنيها، أسندت ظهرها إلى الشجرة.. أنبتت في عينيه شعلة من لهب، أخذت تتكلم وتتكلم وهي تتلوى ملتصقة بالشجرة، ثمَّ شبكت يديها خلف الجذع فامتزجا، ارتفع صدرها كثمرتي رمان ترجوان القِطاف.. لم يعد يسمع شيئًا.. التصقت بكامل ظهرها في جذعها المشدود فانقسم ردفاها المثيران نصفين؛ فَجَّرا زهده تمامًا.. غاب كل صوت في الكون.. أغمضت عينيها في سحر. انتصبت قرص الشمس وكاد يغرقه العرق. أوشك بركان كامن منذ عشرات السنين أن يحرق كل شيء...

وصفت له في نهاية اللقاء خريطة يتتبعها حتى يصل إلى الشقة. التهمته طوال الليل حتى ذاب الظلام.

بقي في المسجد طوال اليوم التالي باكيًا مستغفرًا عن ذنب أتبعته قبلة فوق يديه. لم ينس في الباقي من عمره أن زوجها مسعود الرايق حرص على مساعدته في غلق الورشة تلك الليلة وحيَّاه بسؤاله الساذج المعتاد قبل أن يمضي: "المهم.. انت بتحبني؟".

*****

"غلطات الأخيار بهجة الأشرار"، كانت خطيئته بهجة الأحاديث.. قصَّت هي كل شيء بكل جسارة.. ظل فهد "الاستورجي" يطوف بخطيئة فيصل طوال اليوم بين الناس كأنها خطأ شارعنا الوحيد:

"آدي يا عم الشيوخ واللي رايحين جايين ع الجامع!".

حاول قيادة الشارع لثورة ضد فيصل، لكن الجميع تابعوا خطبته بفتور. لم يكن تاريخه في الشارع يسمح بتقلد منصب قيادة المنافحين عن الشرف، بل قواديه. وبالفعل، ثبت ذلك حين اتضح أنه كان بالنسبة لها النواة التي تسند "الزير" كلما نضب المعين.

*****

ثالث الآفات: سعدون الرقاء، ذلك العملاق الدنيء، ضخم متسع الباع ربع الوجه، بارز الفكين أهتم الأسنان، صحته كالحديد، يمشي كأنما يتسقط من علٍ، يميل بوجهه دائمًا أثناء سيره وينظر للأمام بطرف عينيه، لا من علة ولكنه يتخابث فيما بينه وبين نفسه أيضًا. يكرهه من يعامله لوهلة ويكرهه من يعامله لفترة، تعدى الخمسين بقليل. يخاصم بلا أسباب ويصالح حسبما تقضي المصالح، تراه أحيانا يسب ويلعن شخصًا لا يراه أحد. عند ذلك يظن كل واحد أنه يقصده، تراه يضحك وحده مجلجلًا من دون أسباب وقد تراه آخر اليوم ذليلًا يتضرع لأحدهم من أجل جنيهٍ ونصف لمواصلاته حتى لا يجرح خمسين جنيهًا، وربما كان أحدهم هذا هو من كان شتمه بالنهار بلا سبب، يتحول آليًا بعد أخذ الجنيه لشخص آخر.. قد يسبّ المانح نفسه.. أهدأ عباراته حينها تكون "كل هذا الذل عشان جنيه.. يا راجل يا ناقص".

لم يكن يتورَّع أن يدفع جنيهًا واحدًا في حلاقة رأسه المكور الضخم بعد أن يوشك أن يطلب حلّاقته من تحت الجلد،

حتى لا يكلفه جنيهًا آخر بعد شهرين، يبصق كل دقيقة بعد أن "ينخ حلقه نخًا" جهورًا. يتقي الجميع شره وصياحه الجهوري وخسة طبعه وفُجر خصومته، ناداه الأطفال باسم سعدون الدون.

كان صاحب النصيب الأوفر من فحش لفظه وتقلبات مزاجه رفيقه بالمحل، الأسطى أحمد، ترزي أفرنجي، قلّما يأتيه أحدٌ لتفصيل بنطال أو قميص، بل تضييق أو ثني رجلٍ أو وضع "سمكة" عند حِجر مهترئ أو قلب ياقة قميص دائبة. كلاهما يعمل لدى صاحب المحل الذي أقعدته الشيخوخة.

لم يتحدث أحدهما للآخر لأعوام.. الرقّاء دائمًا يسب والأسطى أحمد دائمًا لا يرد ولا يبدو أنه يحفل. يقتسمان كل شيء في المحل رغم ضيقه الذي يجبرهما على القرب.. يقتسمان الإيجار والمساحة، ويقتسمان الضوء أيضًا، لكلٍ "لمبته".. يكنس سعدون الرقّاء الدكان ليضع الكناسة تحت ماكينة الأسطى أحمد.. يبول أحيانًا تحت ماكينته قبل أن يأتي، ثمَّ يستشهد برائحة الصنن كثيرًا على قذارته، يسبه ويلعنه دونما سبب، يغلق المحل أحيانًا ويخفي المفاتيح عنه. والأسطى أحمد من ذلك النوع الصبور الذي يتحمل بلا نهاية بدعوى الورع.. نوع نادرٌ لا تهزه البراكين والزلازل، والعجيب في الأمر هو ما عرفناه بعد ذلك، أن الأسطى أحمد هو شقيق صاحب المحل المُقعد بالشيخوخة، وهذا الشقيق لا ينتصر له من سعدون بدعوى العدل.

في ظهيرة أحد الأيام، وقفت امرأةٌ عجوز ترجو سعدون أن يقبل ثلاثة جنيهات، هي كل ما تملك، مقابل رفو بنطلون ابنها الجامعي، وسعدون لا يردّد سوى جملة واحدة بين كل توسلات العجوز "سبعه جنيه، سبعه جنيه". رجته واسترحمته.. تشبثت بإحدى أرجل البنطلون فأحكم هو مسك

الرجل الأخرى بيسراه.. أوشكت على تقبيل يده التي يقبض بها على الرجل.. صمَّ أذنيه تمامًا عن رجائها.. تجاهلها كأنها غير موجودة، ترك رجل البنطلون بيديها واستوثق من إحكامه على الرجل الأخرى وبدأ يأكل، كوَّر نصف رغيف لحمة رأس في جانب فمه فانتفخ خده كبطن الثعبان.. ظل ناظرًا أمامه هادئًا وتركها تتوسل حتى كاد صوتها يضيع.. مذاق لحمة الرأس فصله عن كل شيء. لما فرغ من وجبته اكتشف أن رجاءها ما زال يتردد، سدّد لها نظرة كارهة بغيضة وما زالت بقايا طعام يلوكها فمه، جذب البنطلون من يدها فوقعت العجوز على الرصيف من شدة جذبته..

في نفس اللحظة، مرت سامية...

*****

سليم وسامية

كانت على وجهها آثارُ قلة نوم؛ لم يصْفُ ذهنها بعد من نوبة ليلية ألمَّت بابنها علاء، وصياح صباحي معتاد مع حماتها المتآكلة، حين رأت الرقّاء يجذب ثوبًا وتنكفئ عجوز، لم تمهلْ نفسها الوقت لتفكر، انطلقت كلبؤة شرسة نحو الرقّاء متعطن الوجه وظلت تكيل له أفظع أنواع السباب واللكز والبصق وهو مبهوت يظن أن العجوز نفسها لو عادت شبابًا لما كانت بذات الحماسة. رددت ألفاظًا عن جرائم لم يكن هو مرتكبها، ظنَّها جُنَّت. عاقبته كأنه كل الرجال الذين أخطأوا في الحياة، أخذت البنطلون من يده بوحشية ثمَّ استدارت بوجهٍ كله حنان وأعطته للعجوز.. لم تدفع جنيهًا واحدًا.. قالت بصوت حرصت أن يسمعه الجميع:

"هو الشارع دا كده، رجالته فوق دماغك، بس لما تعوزي راجل متلاقيش".

لم تنسَ أن يشتمل سبابها الشيخ أحمد الذي كان جالسًا يرى كل شيء:

"هو ربنا قالك اقعد اتفرج ع الظلم واعمل من بنها يا شيخ قرد؟".

*****

كم رأت عيناك ريشة يحملها الهواء، لا تدري أين يستقر بها المقام؟ تتبادل نفخها الأفواه وتذروها الرياح، قد ترسو على الأرض فتطأها قدم عابرة أو عامدة فتنهيها إلى الأبد، وقد تعلق على صخرة أو فرع شجرة لا يعبأ بها أحد حتى تجف الروح فيها.. وقد تقبض عليها يدٌ، لا لتقتنيها بل لتلهو بها.

عندما تطورت اليرقة لمخلوق يمشي بين الناس كانت

مخلوقًا منقبضًا.. متحسسًا وشرسًا.

سامية، امرأة جمعت كل المتناقضات، اختلافات صنعتها الفطرة الغامضة والظروف الاستثنائية.. جاءت شارعنا طفلة صغيرة لا يدري أحد من أين جاءت.

ظهرت أول ما ظهرت في محل الأسطى بكر الترزي.. رجل يُعافر الباقي من عمره في سلام. عملت لديه قليلًا، ثمَّ لم يعد يكفيها أن تعمل مقابل طعمتها فانطلقت تعمل في معظم المحلات وتقضي طلبات الجميع بحماس. كان الجميع يستخدمها ولم يكن يلتفت لها أحد.

تحاول خدمة الجميع لتستدر عطفًا وقليلًا من المال لتأكل. رضيَ "عمُ بكر" الطيب أن ترسو في دكانه نهاية كل يوم، يغلق عليها ويفتح عليها فيجد المكان أشد نظامًا عما تركه. يعشق "عم بكر" النظام؛ يحلق في اليوم الأول من كل شهر، إلا إذا صادف ذلك يوم الاثنين.

يرفض أن أقوم بالتسريحة النهائية في نهاية الحلاقة.. يهب واقفًا أمام المرآة الخلفية، يخرج مشطًا أسودَ صغيرًا عاجيًا من جيبه الخلفي ويتعامل بنفسه مع "فورمة شعره". يدفع سبعة جنيهات بالتمام والكمال؛ شعر وذقن.

عندما أكملت الثالثة عشرة مات الأسطى بكر. لم يكن ممكنًا لابنه الشاب ذي السادسة عشرة أن يُبقِي الوضعَ كما هو، الناس لم تقبلْ ذلك؛ نصحوه بطردها. لم يعد المأوى متوفرًا، خرجت.. كان الكل، خاصة أولئك الناصحين، يتربصون بها ويراهنون من سيبدأ بتلك المدورة السمينة.

التقطها سليم بعين جائعة خبيرة للعمل في دائرته الحريمي، وباحتياج ذكوري لطفلة ترضى بالقليل، وتساعده في حل لغز الأم التي ضيقت عليه الخناق حتى أوشك أن يمقتها. أقنع أمه أنها ليست سوى خادم.

الأم.. ذات الستين عامًا، ما زال بها بعض آثار جمال، شديدة التأنق والتعالي والأنفة، نظيفة إلى حد المرض. مات زوجها بعد عامي زواج فوهبت كل لحظة في عمرها لابنها ولم تعد ترى له صنوًا..

"البرنس ابن البرنس.. غيرش بس الزمن".

ضنَّت بجمالها وشبابها حينئذ على كل رجل، تفرغت لابنها تمامًا. دائمًا كان المميز بالأناقة والنظافة عن كل الأقران، لم يكن يتمنى شيئًا إلا أتته به، بلغت رعايتها الغريبة له أن يذهب ليلا فيجد العشاء معدًا، والسجائر الملفوفة بالحشيش، وزجاجة بيرة.. وشمعتين وعينين ملتاعتين. لم تتقبل يومًا أن تقوم الأنثى الصغيرة الجديدة بهذه الخدمات، تنهرها كلما اقتربت "انتي عايزه منه ايه؟". تعشق كي ملابسه حتى الداخلية منها وتتفنن في تنسيقها "ولماذا تريد امرأة؟ ماذا ينقصك؟".

شد وجذب حول الرجل الذي اجتمعت فيه وسامة "رشدي أباظة" وانتهازية "فايجن" ثمَّ مأساة "لير". تنتصر الأم دائمًا. أما هي، سامية، فلم تكن تمتلك الحرية إلا في المحل.. يغدق عليها بالمال والعطايا ويحدث الدنيا كلها بذلك.. علمها الصنعة من الألف للياء. برعت في شد الفتلة وفاقته في الكي وصبغ الشعر. كانت تتمنى أن تتحقق، أن تكون. جوع نهم لإتقان تخصص.. تعلمت ما لم يتعمله هو نفسه.. حفّ الشعر ونتف الباطن ورسم النَّاتُو.. إصرارها كان واضحًا. كانت تكافح المجهول ومرار الطريق.. انطوى قلبها على حزن دفين لم يطَّلع عليه أحد.. لم يحتويها صدرٌ مجانًا ولم يكن أحد هناك ليمسح دموعها أو تشكو إليه.. لا تتوقف عن العمل طيلة النهار ثمَّ تنتظرها العجوز أيضًا للمسح والكنس والطبخ وطلوع الروح.

في الليل أيضًا، علَّمها كيف تكون أنثى، لم يزجره صباها ووحدتها.. وعَت ما يروم، لم تزجره خوفًا على المأوى المضمون والصنعة الجديدة. اكتشف أن حاجته إليها أكبر من حاجتها إليه. قرر في ساعة سطلٍ أن يتزوجها. اعترضت أمه: "تتزوج من بلا نسب؟". أغراها بفكرة الخادم. أصبحت عضوًا في بيت أخيرًا.. وجهّت لكل ما مضى نظرة وداع صامتة وقررت أن تكون هذه اللحظة نقطة بدء.

*****

لم يوصها يومًا بأمه ولا أوصتها الأم به. بمرور الوقت وتعدد المواقف، اكتشف أنها كائنٌ غير قابلٍ للطَيّ. تضاءلت شخصيته أمام شخصيتها التي كانت تستفحل كل يوم. أصَرّ على أن تدمن ما أدمن، هان عنده أن تشاهد ممارسات غيره عبر "أفلام الفيديو" التي يجلبها كل ليلة أحد.. لم يدرك أن المدهش ليس البئر وعمقه، بل قدرة الحبال والدلاء وبأس السقائين؛ أشعل نيرانًا ليس في وسعه إخمادها فيما بعد. ربط عينيه عن تجبرها على أمه. نضجت قليلًا فاكتشفت أنه فارغ، وأنها دفعت ذهبًا وفضة مقابل التراب، لفظته تمامًا حين وصلها أنه كان يحكي للناس أنه يفلح الأرض من كل النواصي.

لكنها لم تسمح لفكرة هجرانه أن تستفحل، لقد وجدت الريشة العالقة مأوى وتنفست الحياة، قرّ الجسد في "مطرح" يوشك أن يكون صاحبه. هدأت الأمواج التي تقاذفت القلب حتى صار بلا أمنيات سوى الرّسُو على أي شاطئ.. تقلب القلب فوق ظهور المجن حتى أوشك على الجنون.. لا.. ليس الفراق.. الآن على الأقل.

وانقضت عشرون عامًا.. أصبحت الأم شبحًا خَرِفًا في الثمانين ولم تعد تعبأ بشيء، والابن في منتصف الخمسينات

وقد أضاف إلى قائمته "الترامادول والأباتريل". وأصبحت هي زوجة في الثلاثين ولديها منه ابنة وابن.. أميرة، بهجة الحياة وبسمتها وتعويضها عن مرار العمر. حضن يومي يستغرق ساعة.. رائعة كحلم يستحق كل عناء الماضي ثمَّ يمحوه بلمسة، مساحة السعادة الخالصة.. الجائزة الكبرى التي ينالها من تحمّل وسقط وقام وقضى الليالي باكيًا في صمت. وعلاء، فتى كالنبوءة، لم يكن في وسامة أبيه لكنه جميل، كان مختلفًا، غامضًا وصموتًا، عنيفا في لعبه، قاسيًا في خصامه شديد الانزواء، يأكل أظافره بنهم، تنتابه هجمات كهربائية توشك أن تفجر جسده، بداية لم تكن تأتيه سوى في الليل، ثمَّ أصبحت عند بذل مجهود، ثمَّ صارت بلا مواعيد.

لم يزعجها إلا عدم قدرتها على متابعة دروسهما لأنها لم تنل أي قدر من تعليم.. كانت تكتفي بالجلوس حولهما وهما يذاكران.. تشرف على صمتهما أو لهج ألسنتهما بما يقرآن ويكتبان.. لم تسمح لليل أن يضويهما حزانى.. حاولت قدر ما استطاعت أن تصرف طبيعة علاء عن صفات أبيه.

كان التطور الحقيقي والكبير في شخصيتها هي.. تطور لا تدري كيف سار في الزمان حتى صار واقعًا.. هل كان نتيجة لاكتشاف خواء روحه وجسده؟ أم كان لطبيعة لم تستطع أن تظل خبيئة بعد أن انتقلت المنبتة من أي أصل إلى زوجة ذات بيت وأسرة؟ بدأ يظهر لها أقارب.. هذا عمي، هذا خالي هذه عمتي.. وهذا الطويل الأسمر أعز أصدقاء الطفولة.

أصبحت المتحكمة في كل شيء.. شديدة العصبية، خاصة فيما يمس أميرة وعلاء.. لم تكن تسمح لظل مكروه أن يحيق بهما، قوية الشكيمة مرعبة لجيران البيت والمحل، تتحكم في "الدُّرج" وتمنحه المصروف كالعيال وتمنعه من العمل بدعوى أن الحشيش أكل مخه وأنه لم يعد قادرًا على الوقوف

وأن أكثر من زبونة ظنت أنه "بيريّح" بجسمه عليهن.
"بتزنّق ف الزبائن يا راجل يا عايب.. أخرج اقعد بره".

تعاركا في تلك الليلة معركة حسمت مقاليد القيادة وزمام الأمور. فاجأته بما لم يظن أن يسمعه أبدًا، عيرته بكل ما يعرف أنه حق. أخرجت كل مخبوء في بطون الذاكرة.. نفشت القطن من بطن المراتب...

في نهار تلك الليلة خرجت لتجد عجوزًا تطيح بالأرض بجوار الرقّاء.. وجدته يمضغ بقايا طعام كأن السيدة ذرة من تراب لا يعبأ بها.. لن تسكت لرجل منذ اليوم.. انطلقت نحوه وجعلته مسخرة الشارع فيما تبقى من عمره. لطمته وبصقت وأسهبت في الإسفاف..

"فاكر يا راجل يا خول لما قلتلي زمان تعالي نضفي المحل وحسّست عليا من ورا؟ سبعه جنيه يابن الوسخة؟ خدي يا أماه.. مش هياخد نكله".

قَنَّنَت هذه المعركة وضعها الجديد بالشارع، لم يعد لسانها يوقر كبيرًا أو صغيرًا، سرعان ما تبدلت أحوال الناس معها، لا شيء أحسم لصراعات المكانة من القوة الباطشة، أصبح محيط الكوافير منطقة بيضاء، خالية من الأخطاء. الكل يتجنب الصراع حوله.

عشقتها السيدات وتجنب الرجال عينيها. صارت تخصص وقتًا مسائيًا لاستخلاص حقوق المقهورات. في حانوتها، تصلها الكثير من القصص عن زوج خائن وجار "مبصبصاتي" وشيخ يتخفى زيغه خلف شيبته.. تستوقفهم لتفضحهم، تنتف لحى زيفهم نتفًا.. تذهب إليهم في بيوتهم، شديدة التحيزَ للنساء، كلما بلغها بطش رجل تربّصت به وجرّسته، تُوجد الأعذار لنكدات الطبع وشرسات الخلق وطالبات الطلاق.. وتؤيد على وجه الخصوص الكِنات المتمردات.

وكان هذا آخر عهد سليم بالعمل بيديه.. أصبح كل دوره فتح المحل والابتسام في وجه الزبائن ومناولة القداحات، ثمَّ الجلوس على بابه طوال النهار، الجريدة في يده والسيجارة في فمه ومصروفه في نهاية اليوم من يديها. قد ترسله أحيانا لشراء بعض لوازم العمل أو الغداء أو "يروح يجيب العيال من المدرسة".

لم تعد تطيقه، أصبحت تعشق إهانته وتتفنن فيها وتكره من يراجعها بذلك الأكليشيه المذموم:

"متنسيش فضله عليكي، الناس تقول إيه؟".

أين كان هؤلاء الناس حين كانت القطة في الطريق الدائري عرضة أن تسويها بالأرض أي سيارة عابرة وهي لا تتقن العبور؟

أين كانوا حين طواها الليل طاوية تفترش كارتونة وغطاؤها شوال؟ كانت ترجو مرفأ وزوجًا وعائلةً فنالت صورتهم أمام الناس، لكن الحقيقة كانت ضجرًا وعذابًا، لم تترك الأم مناسبة إلا وطردتها.

"لم يكن الشارع أقلَ قسوةً منه ومن هذه الحيزبون".

الشيء الوحيد الذي أحسناه كلاهما وتنافسا فيه، كان تربية الطفلين. صاحبت أميرة وأرادت لعلاء أن يكون رجلًا مختلفًا صلبًا، لم يكن شيءٌ يمر من دون إذنها، كان قلب علاء غامضًا ومنطويًا كمن يوازن مشاعر لا يدري في أي اتجاه ترسو.. كثيرًا ما صرخ فيهما معا أثناء عراكهما فبلغ بهما الخوف أن صمتا تمامًا.. لعل وجوده هو الذي منع الدم أن يسيل في هذا البيت.. صار ممشوق القوام مرهوب الغضب.

أما أميرة، التي هَدَّأ الحبُ روعَها واضطرابها، فكانت تهرب من كل العيون. أقنعت قلبها أن ينتظر حبيبها "الفكهاني" الراقي حتى يتم مشروعه التربوي والدراسي.. قررت أن

تحتمل حتى تطير معه فوق شجرة عالية.. يقطفان ثمارها معًا.
"بابي.. أنا باحط وشي في الأرض، مش عايزه حد يشوفني".
هذا ما قالته أميرة لأبيها قبل السفر بلحظة حين كانت تلومه على الشجار وتبادل الفضائح.. ألقت نفسها في حضنه فبكى بكاءً هيستيريًا. قال كلامًا كثيرًا وهي متشبثة به، سوف يبقى متذكرًا لهذا الحضن وتلك الضمة ويظل يتشممها باقي عمره...
"لا يا بابي.. أنا زعلانه آه.. بس دموعك دي عندي غاليه قوي".

****

هكذا سارت الحياة.. سطوة طرف تناقصت يومًا بعد يوم، وأخرى استفحلت بلا روية، وابنة راقية كالنسيم تتعلم الفرنسية والإنجليزية وتزداد ألمًا كل يوم من صراعهما الناشب ليل نهار، وابن غامض وحائر تنتابه حالات لا قبل بجسم أن يتحملها ولا يلقى من أبيه سوى العطف بلا ممارسة سلطان، ومن أمه إحاطة وحنان.. لبؤة شرسة لا تعرف الحدب والحنان إلا لدى الذرية.. وبعيدًا في المدى أمٌ عجوز لم تعد تكترث بالحياة ولم تعد الحياة تكترث بها.
عندما نجحت أميرة في الثانوية العامة كافأها والد إحدى زميلاتها برحلة إلى الإسكندرية.. لم يعودوا منها جميعًا.. انقلبت السيارة بهم.
أثبت التشريح أن الرجل وابنته ماتا بفعل الحادثة وشدة الارتطام..
أما الرقيقة أميرة فقد قتلها الخوف والصدمة.. لم يكن في جسدها خدش.
ذهبت الأم حتى الكيلو خمسين بالطريق الصحراوي. لا تدري سيرًا أم عدوًا أم أقلها جارٌ بسيارته. اصطحبت

علاء.. كانت تظن أنهم كاذبون.. قالت لابنها مطمئنة:
"ماتخافش؛ ربنا أرحم من كده بكتير".
عندما وقفت أمام جثمانها تولّت عنه لئلّا تمنح نفسها فرصة للتصديق. عاد الشعور القديم بالتيه. سألتهم في بلاهة:
"انتوا اتأكدتوا؟ شوفوا تاني.. يا ولاد الكلب".
جَسَّتها، شمَّتها.. جمعتها بين يديها.. نادتها بكل الأسماء.. وعدتها أن تكون أمًا أخرى.. صالحة وساكنة.
حين عادت بجوار الجثة في سيارة نقل الموتى، كانت شاخصة تعاتب الرب في صمت.. لم تنبس بكلمة طوال الطريق.. لا يوجد شكل في الدنيا للحزن يمكن أن يعبر عما بها، ربما ذهب بها الحزن إلى أقصى أطرافه فأوشكت أن تضحك.
لماذا لم يمت هو؟ لماذا ينفرد الله بهذا القرار؟ يأخذ من نحب ويستبقي من نكره؟
كان طريق العودة أطول، تخلله الظلام وكانت الرياح تزوم وترُّج السيارة.
جلس أمام صالونه يستقبل المعزين، كان يتكلم كثيرًا، اندهش كل من كان موجودًا من ثرثرته وهو يحكي للناس أنه ليس حزينًا حيث زفَّ ابنته إلى الجنة وإن "المره الوسخة"راحت لوحدها.. لم تأخذني معها".
اخترق الأسطى محمود حزنه اختراقًا، كان مدهوشًا أن موتها لم يشغله عن صراعه معها. لم يعبأ بحرج الموقف:
"هوا مشوار زي ده محتاج عزومة؟ النسوان تروح والرجاله تقعد؟!".
من بين المعزين، دخل رجل غامض الهيئة.. انسَّل مباشرة إلى المحل.. دخل سليم خلفه.. دسَّ الرجل في يده قطعة حشيش.. شعر بالحرج حين رأيته فقال:

"الواحد مبقاش يعرف يقعد من غيره".

ظهر سامح، كان يلهث، بدا أنه كان يعدو طوال الطريق بين الرجاء واليأس، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى، وقف واجمًا يستطلع صحة الخبر، أنبأته الجلسة ورصة الكراسي بصدقه. نظر إلى أبيها ذاهلًا.

ارتمى كلاهما في حضن الآخر وظلا يبكيان بصوت عالي ونشيج..

غير بعيد عنهما وعن الجالسين، كان سعدون الرقّاء منكفئا على قطعة ملابس يرفوها وهو يضحك بلا صوت، مهتزًا من كل أطرافه وقد بدت بقايا أسنانه مقيتة، وعينه ثابتة تنفث السم.

بعد أسبوع فقط من قطف الزهرة اليانعة الرقيقة التي كانت جديرة بتوقف الحياة عندها، تدخَّل البوليس ليفضَّ معركتهما حول الأحق بالشقة، حكم للطرفين بها "وعلى المتضرر اللجوء للقضاء".

كان ممزق الثوب مشوه الوجه وكانت عيناها محاطتين بكدمات زرقاء وكانا يتسابان بأقذع الشتائم، لم يعد يتدخل للصلح بينهما أحد، تدخل البوليس مرات عديدة بتهم مختلفة..

لم يعد أحدٌ يعبأ بهما بعد أميرة، أصبحت حياتهما كاللعب في الوقت الضائع بين فريقين لا يستحقان المشاهدة.. استأجرت محلًا وشقة بقربه وتركت له المحل القديم. افتتحته على نطاق موسع.. أصابته قدرتها على الانفصال بالجنون. لم يكن يتصور أن تخرج من فلكه.. مركز تجميل شامل وحمام وتدليك، يافطة مبهجة زاهية الألوان والإضاءة وعاملات جدد في منتهَ الإثارة.. قصت شعرها، ارتدت ملابس فاقعة اللون ملفتةً وشديدة الضيق.. ولسببٍ ما، لا يعلمه أحد، أصبحت

ترتدي تحتها ملابس أميرة الداخلية، هذا ما قال سليم. صارت تبيت في الكوافير الجديد.. أسمته "الأميرة". اختفى علاء أيضًا.. تسربت الزبائن إليها.. وكسد محل سليم، اكتشف عجزه وأصيب مجاله بالشلل التام.. كانت كل شيء، ومن دونها صار ظلًا بلا صاحب.. بدأ حملة تشنيع واسعة النطاق.. كان يحكي لكل من يمر القصة من البداية حتى لو لم يكن يسمعه أحد...

"دانا جايبها م الشارع.. دي طردت أمي.. دي فاتحه محل دعاره وتاتو.. دول بيدلكوا النسوان فوق.. بياكلوا من عرق فخادهم".

يتندر بعضهم أحيانًا فيردد الجزء الأخير معه.

قال عادل: "على أية حال، لا يسعك إلا أن تأسى عليهما.. ما فقداه ليس مجرد ابنة، ما فقداه كان معنى الحياة وزهرتها.. إنها تعاقب الزمن وتستعديه لجرأته على أعز ما ملكت!".

وكما لم يدرِ أحد منطق فراقهما، لم يدرك أحد منطق تلاقيهما...

*****

تحورت الريشة، احتوت في باطنها يرقةً عطف عليها الزمن ونمت بماء المعاناة فاكتسبت صلابة الغدر.. تأخرت كثيرًا لحظة تحديد المصير. اتخاذ قرار وجود.. لتلقي من السفينة كل ما يعوق مسارها.. تُبحرُ ولا رُبّان غيرها.

****

في ليلة شتاء مطيرة طرقت باب الكوافير، دخلت.. كان يُعبئ التبغ مغموسًا بالحشيش المذاب في ورقة بفرة.. خرجا معًا بعد دقائق معدودة متوجِّهَين إلى بيتهما.. أسبوع مضى عليهما بلا شجار.. كلٌ يحاول أن يَسبُر ذات الآخر.. قلبان يضمران ويختبران، وعقلان يتربصان كأذناب العقارب.

قضيا ليلة ساخنة؛ ثمَّ تشاجرا وما زال أثر عرقهما ونشوتهما اللاهبة فوق ملاءة السرير.. أراد كل منهما أن يجرح الآخر إلى أقصى مدى.. عَيَّرَها أنه "لمَّها" من الشوارع ونالها قبل الزواج. وعيرته بارتخائه.

ثمَّ كان خارجًا من غرفته قاصدًا الحمام حين فوجئ بمن يركله من الخلف بكل قوة فيرديه أرضًا ثمَّ تنكب هي فوق ظهره واضعة وجهه في البلاط ثمَّ تضربه بكل قسوة.. كان باله مشغولًا أكثر بمن سدّد الركلة من الخلف.. حَوّل وجهه المصوّب للأرض إلى الباب الموارب بصعوبة؛ فوجد شابين من أصدقاء علاء يؤمِّنان المدخل كي لا يتدخل أحد.. لم يَدُرْ في ذهنه حينها أن علاء هو من سدد الضربة. مكنته المقاومة الواهنة التي يسمح بها جسد أرهقته الستون عامًا والمخدرات والصدمة من استدارة بطيئة، تنحَّت سامية.. سمحت له أن يرى المشهد كاملًا ليجد علاء يشير لأصدقائه بعلامة النصر؛ ثمَّ يغلق الباب؛ ثمَّ يستدير إليه بوجه كتحدٍ ويد تقبض ممسكة بخشبة، انهال بها على قدمه اليمنى وهو يصيح به وقد تحول في عيني الذاهل على الأرض من طفل لمارد:

"روح اطلب لنا البوليس".

أجابه مبتور القلب ذاهلًا:

"علاء.. أنا ابوك!".

"أنت مش أبويا".

انهال بالخشبة على قدمه الأخرى، سمع ارتطامًا ضخمًا لكنه لم يشعر بألم.. شُغِل بالتعبيرات الغريبة على وجه علاء.

"ربيتك سبعتاشر سنه عمري ما ضربتك".

"أنا بقى اللي هربيك من هنا ورايح".

ليلة كاملة ظل فيها مستسلمًا لعذابهما حتى ملّا وتركاه.

تمنى لحظة استيعاب..

ليلة كاملة، لم يُعَزِّهِ فيها إلا تذكره عيون أميرة، صوتها وحضنها الأخير حين تشبثت يداها بظهره وضحكت ضحكتها تلك العذبة بين دموعها ودموعه وقالت برقة طفولية:

"لا يا بابي.. أنا زعلانه آه.. بس دموعك دي عندي غاليه قوي".

*****

وســـــامة

المساحة المكفولة لك من الحياة لن تكفيك للإدراك، لكن آية واحدة في كتاب الله تفسّر الزمن كله، لمحة واحدة في كتاب النفس تمنحك الرؤية.

الوجود أضيق من أن يحتويك وأحدية الله تشمل المكان والزمان منذ الأزل.. لن تتسع لك الحياة أيها الحلّاق فانظر هنالك.. حقق وجودك في ذاك الوجود. احتمل القيظ قليلًا، فهناك ظل لن تعرف الحر فيه؛ جُعْ لتشبع واظمأ لترتوي. استغرق في ذاتك أكثر تدرك أكثر.

شعرة واحدة في رأس زبون أروع من كل نظريات الفلاسفة.. كل مرونة الأفكار لا يمكنها أن تصل إلى براعة شعرة: تنمو، تأكل، تتوجه، وبمجرد خروجها من بنائك الساحر تصبح بلا معنى.. كأن لم تكن.. لا مكان لها في كل الحياة.. مصيرها إلى "جردل الزبالة".

لو أن شعرة واحدة ليست في مكانها لسيطر القبح والنفور.. وقوعها على الوجه أثناء الحلاقة يثير الملل.. وكانت منذ قليل تزيِّن الرأس.

كيف تتشكل اللحى بهذا الإبداع الفريد؟ طِبقًا لكل وجه! لا تخرج شعيرات قليلة عن السياق، ترتسم في اطمئنان ونظام.. كلذة شربة ماء تروي العطش ولا تصل إلى التخمة.. تُترَك قليلًا فتتلاحم في عناق ذهبي أو فحمِي اللون في حنين لا ينقطع.

كانت أم المؤمنين عائشة تقول:

"سبحان الذي زيّن وجوه الرجال باللحى!!".

سألت الشيخ عماد يومًا: لماذا تطلق لحيتك؟ فقال:

"فطرة الله التي خلقني عليها، صفة الأنبياء وسمت العلماء

وعادة الصالحين والأولياء، وهكذا تحب زوجتي أن تراني، ولا تنام طفلتي إلا وهي تداعب لحيتي".

سبحان من زين وجه الرجال باللحى! نفس الملامح على كل الوجوه ولا تشابه!

هذا "الشنب"، كيف يقف هكذا بين الأنف والفم في بسالة؟ يصعب تصوره في مكان آخر.. يُجَمِّل الفم ويداري فتحتي الأنف فتبدو هكذا رقيقة!

شعر الرأس، مساره عند الجبهة في وقار وأناقة. السوالف.. الدوران حول الأذن.. قدرة الشعر على التشكل المنطقي في بساطة وأناقة، استيعابه لكافة أشكال القلق وتخلل الأصابع!

تسرب المشيب، حدائق الفضة، لوزات القطن تسطع في بريق الشمس.. كيف تسرب هذا اللون ومتى؟

لو بلغتم السؤال، لو عدتم لدهشة الأطفال لأدركتم.

وتنتهِ الألوان جميعًا إلى الأبيض: نور الإدراك ولذة الفهم، نبلغ مرحلة الحلم ونمتلك موازين التقدير.

قال ابن عباس: لو كان الشيب لونًا، لتسابق إليه الرجال.

الصلع.. كيف يرتسم بهذه الدقة؟ يتسلل دون أن ندري كعشق يدب بين صديقين حميمين لا يعرفان إلا عند الرحيل ألّا غناءَ لأحدهما عن الآخر!

وسامة الحواجب.. مثل حكيم يعرف ما يريد.. يقفان فوق العين في مودة ورقة وهدوء.. يتصافحان أحيانًا أو يبتعدان، وهما يتبادلان النظر في شوق.. رفقة لا تنتهي بالبعد!

تعانق الرموش، دثار المنام وأمَنَة الخوف، أخوف على العين من الأم على وليدها، يتعانقان في سكينة أو يبتعدان متشابكي الأيدي لإتاحة الكشف!

شعيرات الأنف، تلك الدروع الباسلة، تلاحم ووقاء،

سدًا خلف سدّ، يخرج النَفَسُ الرقيق.. يدخل النفس الرقيق.. ليس لغيره الإذن بالدخول لأنه لا يحمل بصمة الإذن الإلهي! رغم امتلاء العالم لا يدخل غيره، مانحًا الحياة ودليلًا عليها.

يُروى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة، كان سعيدًا ومتواضعًا، نحر الإبل وأعتق الطلقاء وطاف واعتمر ثمَّ حلق شعره ووزعه على أصحابه.. ليتني كنت حلّاق النبي -صلى الله عليه وسلم-.. لم أحسد حلّاقًا في حياتي كما حسدت حلّاق النبي.. أي حنين كان في لمسات مقصه وأي مودة؟! أي روعة شعر بها أثناء الحلاقة؟!

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من كان له شعرٌ فليكرمه".

الدنيا تأخذنا.. تسلبنا الدهشة.

الألفةُ.. عدو الحمد الأول، سلاح الشيطان الأمثل.

نمرّ بالجميل ولا نراه من فرط ألفتنا، كيف لا نتوقف في كل لحظة لنتعجب من أشياء نظنها طبيعية وعادية؟ أشكرك كثيرًا يا الله على هذه الأناقة التي منحتها الإنسان.

اللهم إني أحمدك عدد كل شعرات البشر.

اللهم ارزقني عشق بسيط عميق آياتك، الشعر والظفر وأهون الأشياء.. اللهم هبني عينًا ترى وقلبًا لا يتوقف عن العجب والحمد. خلقتني جميلًا فريدًا.. خلقت ملايين الملايين من الوجوه بملايين ملايين الأشكال في نفس المساحة الضيقة.. لم أحلق يومًا لزبونين لهما نفس القصة.. لم تَبُحْ لي رأسان بنفس السر أو تحدثاني نفس الحديث.

اللهم امنحني الدهشة.. خلقك عظيم والعمر مؤقت والروح خائبة وغارقة في وحلها الأرضي.

اللهم اجمع نفسي من شتات الأشياء ووحدني في حبك.

نميـــمة

تحلو أحاديث النميمة، خاصة حين يتعلق الأمر بالنساء.

بعض الزبائن لديهم قصصٌ مثيرة، والحلّاق المتظاهر بالتقوى يريد أن يبدي الحذر فيلتزم الصمت. لكن.. حين يصمت الزبون يبادره بقول يستدعي البقية دون أن يبدو مشجعًا: "معقول فيه كده؟".

يستشعر الزبون خبرته الزائدة فتنفجر معلوماته..

هذا النوع من الزبائن لا يتوقف عن النظر إلى نفسه في المرآة أثناء الحكي..

يُقال إن إبليس قابل موسى -عليه السلام- وفي إحدى يديه ذهب وفي الأخرى تراب فسأله موسى عنهما فقال:

"الذهب لأهل النميمة، أضعه في أفواههم ليحلو على الألسنة، والتراب لأهل التقوى".

"أتعرف؟ بجوارك نساء وبنات يمارسن الدعارة بعلم أهلهن.. البكارة لم تعد غشاءً يفصل بين عالمين في حسم، بل أصبحت صناعة مضمونة النتائج.. وفيه منها صيني".

يدخل سليم فيشترك مؤيدًا الزبونَ في الجزء الأخير.. ومن دون أي داعٍ يحكي عن فحولته ليلة أمس.

تحوَّل الحديثُ بينهما إلى مرارة، أحدهما يتحدث عن غنج زوجته والآخر يتحدث عن غنج العالم.. أوشكت على الغثيان.

"اسمع، أخ، عورتني".

حين يكون الموس واقفًا أسفل ذقن الزبون يجب ألا يتكلم.. فتح فمه فشقَّ الموس ذقنه من أسفل.. لم أكن أقصد، المحاولات الكثيرة لوقف نزيف الدم لا تخلصني من الحرج.. قال:

"ولا يهمك، كمّل".

طب ما تتكلمش وإلا تتعور تاني.. التزم الصمت، خرج سليمًا.

انتهيت من الحلاقة.. لم يعد هناك خوف أن يصاب.

كنت في منتهَ الاستياء وأنا أستمع إليه، تمنيت أن أصُمّ أذنيّ، وحين أصيب سكت.. لم يُنهِ قصتَه.. طال الصمت.. همَّ بالرحيل، استوقفته..

هنّ بجواري.. أيتهن؟!

*****

مطـــر

مرَّ نصفُ النهار ولم يدخل زبون واحد. لم يكن في جيبه غير ثلاثة جنيهات. سمع صوت صديقه المجاور يقول لأحدهم:

"عايز موبايل بكاميرا، زهقت من الجهاز بتاعي".

توسّع شعوره بالملل، لم يعد يطيق حاجبيه في هذا الحر والفراغ، لم يدخل جيبه جنيه واحد منذ الصباح.

أقبل ساعي البريد من بعيد؛ فردد بصوت عالٍ: "سلامٌ قولًا من رب رحيم"، فبادره الساعي القصير خفيف الدم: "وامتازوا اليوم أيها المجرمون". سلّمه عدة محاضر لتجديد رخصة المحل ورسوم البلدية. أية خدمة هذه التي تقدمها البلدية! ثمَّ ٨٣٣ جنيها رسوم الرخصة، ٧٠٠ جنيه تأمينات! للحظة أحسّ أنه مورد الدولة الوحيد.

تعجب من سقوط الأمطار في هذا الصيف.

التقط المجلة التي كان يراسلها، توجه مباشرة إلى الصفحة التي تحتوي مقاله.. قرأها للمرة الخمسين تقريبًا.. ما زالت قصيدة مصطفى تتردد في ذهنه..

"بنحلم ليه وبنلون أمانينا بنحلم ليه مادام الحلم مش لينا".

قارئة من الكويت أرسلت ثناءً عليه، ما أجمل ذلك.. أهل هذا البلد شديد والتأنق عسير والرضا.. يمكن إذن أن يكون له يومًا قراء.

تآمر مع ابن عمه ليرسل مقالًا يهاجمه فيه بقسوة:

"حلّاق يريد أن يعتمد المنهج الديني كأحد أساليب النقد، يا للرجعية!".

أثمر الخبثُ أكثر من ثمر الصراحة.. تحرّك الماء الراكد قليلًا؛ لكن سرعان ما تلاشى كل شيء.

بدأ يرسل آراءه من خلال قصائد، بدأ بقصيدة عن فاتن حمامة وأتبعها بأخرى عن ليلى مراد، لاقت فكرته نجاحًا في.. خُصصَ له عمودٌ في الجريدة.

كان "عم وهبه" أسعد الناس به.. اتفق معه أن يشتري عشرين عددًا أسبوعيًا ليعرضها في محله ويبيعها ضمن كتبه.. سيرشحها للزبائن..

غمره الأمل.. كان مما أرسله عن ليلى مراد.

الـصـــوت دهـــب
والحسن سبحان من وهب
والرمش ساحر والـــعيون
فـــوق الخـــدود
لـــيل فـــوق لـــهب

قابله صديقه الشيخ؛ وقال: أتمدح أهل الدنيا؟

لم يرد عليه.. لم تكن في نفسه القدرة على تحمل اللوم؛ هذا عالم عقلي.. وقلبي مع الله.. ويدي في شَعر البشر.

بعد عدة أعداد، فوجئ بقصيدة أخرى نُشرت في نفس مكان قصائده وبنفس الفكرة لشاعر مشهور.. قرأها، كانت عن سعاد حسني:

ده كلام مش عن سياسة
مش عــن أيـــام دراسة
مش علـــى ألماظ وماسة
ده كـــــلام عن سندريلا
دمـــهـــا شربات يا خلـــه

خِلّه؟؟ بحث بغير غرور عن وجه التميز، لم يجد إلا كسرًا للوزن وليًا للألفاظ مع ضياع كامل لأي فكرة شاملة.
ذهب مسرعًا إلى المجلة.. قابل صاحبها، الممثل الشهير.
لم يسمح له بالعتاب.. أوقفه عند حده:
"أتدري من الشاعر؟ إنه حفيد الشاعرين فؤاد حداد لأبيه وصلاح جاهين لأمه، وله ديوان اسمه "الورد اللي بيطلع".
صمت الحلّاق وعاد مكسورًا وملويًا "عديم القافية".
جدَّاه شاعران عظيمان وله ديوان وورده يطلع، فماذا يريد من عمود حلّاق لا يقرؤه أحد؟ ليهنأ الشيخ.
ماذا أقول لعم وهبة الطيب؟ هو الذي قال له بهدوء وحكمة:
"ولا يهمك.. إوعى تزعل.. كفايه إن كان في ناس اهتمت بيك".

أبوك حلّاق وأبوه شاعر
صحيح حداد لكن شاعر
بيسقي الورد يطلع له
ووردك لو تدمعله
ميطلعش

لم يغير موسًا في شفرته حتى الثامنة مساءً. مر به سائلٌ، أعطاه جنيهًا، بقي جنيهان.. يجب أن يبقى هذا المبلغ صامدًا حتى يحنَّ القدر برأسٍ.. تذكَّر أنه مدينٌ لعم زكي الترزي المجاور بخمسين جنيهًا كان قد اقترضها منه منذ أسبوعين.
تذكَّر ضياء القهوجي، شيشة وثلاثة شاي وقهوة لمصطفى. لماذا لا يشرب مصطفى شايًا كبقية خلق الله؟ بالإضافة لحساب الأمس، ثلاثة جنيهات وخمسة وسبعون قرشًا.. هذا القهوجي "فُضَحِي"، لو لم يأخذ حسابه لهلّل له في

الشارع.

حتى لو جاءه الزبون الآن فأقصى ما سيدفعه خمسة جنيهات.. وربما ثلاثة!

جاءه جاره صابر، بائع البيض المُبتلى مثله بكل أنواع المحاضر، أربعيني يبدو كسبعيني، أصيب وليدًا بشلل الأطفال فعاش معتمدًا على ساق واحدة والأخرى "فتلة" يلقيها خلفه ثمَّ أمامه وتلتصق به كعبء لا ينفعه ولا فكاك منه، جاءه متهللًا كمن لديه خبر سعيد "ورصَّ الأخبار":

"إسرائيل ضربت رادار سوري وطياره مصرية اتخطفت، مصر طنشت وسوريا بتقولك هحتفظ بحق الرد. الفايده على التأمينات بقت ٧.٥% كل شهر.. الزباله هيعملولها فاتوره ويضيفوها على الكهرباء.. ١٥ جنيه على المحل و٣ على البيت.. حتى الزبالة هندفع عليها، ايه رأيك نخبيها ف حته أمان؟ هاهاهاها".

ضحك صابر ضحكة عالية صاخبة يتميز بها دون سواه.

بضحكته المجلجلة هذه لاطم الدنيا وواجه كل صعوباتها، أدهشنا جميعًا حين وقع فالتوت ساقه السليمة – دون المصابة بالشلل –

رفض طبيب مستشفى القصر العيني إجراء أشعة أو تحاليل. وضع قدمه في الجبس وما كان لمصاب السكري أن تُوضع قدمه في الجبس خمسة عشر يومًا.. انتهت رحلة العبث والإهمال والألم ببتر ساقه السليمة. حين أفاق من البنج ونحن حوله ننتظر حسرته على قدمه التي يعتمد عليها ونشفق عليه من الإفاقة، إذا به يضحك مجلجلًا:

"عال قوي، كده الاتنين باظوا.. بس المهم، العِدّة لسه بخير؟".

عاد من أفكاره ليجد صابر بيضة يلقي الخبر الأخير لكن

وجهه مكتسيًا بحزن:
"بيقولك اسماعيل ياسين مات مش لاقي ياكل، ومحدش كان فاكره غير بتوع الضرايب، وبديعة مصابني هربت منهم وراحت تبيع فراخ ف لبنان".
انفجر به السأم، قرر أن يغلق المحل.. اسرائيل امتلكت كل الخيوط.
أشرق أمام الباب وجهٌ شاب نابه. كأنه يعرفه. بيده مجموعة لوحات على ورق أبيض. انتبه حين مدّ يده بالسلام أن إحدى كفيه مبتورة، لمعة عينيه وبهجته استحوذا على الدهشة. نعم.. يعرف هذا الوجه...
"ألا تذكرني؟ أنا لؤي ناجي".
كيف لا أذكرك يا ألم البدايات ودليل الكهولة؟!
فَرَدَ اللوحاتِ أمامه. تمتلئ كلها بالحرية والإشراق والعدو في المراعي.. إنه هو.. ذلك الطفل القديم.. وجهُك أيها البهيُ كفيل أن يجعل اليوم، بل العمر كله، سعادة. منح القلب ابتسامة طغت على كل شعور.. رحم الله أباك وغفر له، خسر المسكين كثيرًا؛ لم تحظ عيناه بهذه النظرة المشرقة.
وجاء الشاعر مصطفى سالم قبل أن يغلق المحل، يجب أن ينتهي الحوارُ سريعًا قبل أن يصل ضياء القهوجي.. لم يتكلم مصطفى.. أخرج من جيبه مئة جنيه وأعطاها له.. دين قديم لم يعد يذكره:
"ماتقولش ولا كلمه.. النهار ده عندي بكره عندك.. أنا بعت الأغنية".
إيه أغنية؟ بدأها فنسي كل شيء حوله وسمعها للنهاية:
"حبك فوق احتمالي .. حبك فوق الحياة
من كتر هواك ما غالي أنا باحلم بالنجاه".
تناول المئة جنيه:

"دانا اللي شفت النجاه".
توجه إلى الخيّاط العجوز الطيب في الجهة المقابلة:
"عم زكي، خد"، مد يده إليه بخمسين جنيهًا".
تهللت أسارير عم زكي، انفكت ملامح وجهه التي كانت طوال النهار حائرة.
"تصور.. أنا مامعيش ولا مليم ومكسوف أنده عليك م الصبح وورايا ألف حاجة، عمال أقول هاعمل إيه!".
"ماتعملش حاجة يا عم زكي، ربنا هوا اللي بيعمل".
ثمَّ توجه إلى ضياء القهوجي منفوخ الصدر.
*****

الـراكـب الأخيـر

أسيوط أسيوط.. ما زال صوت السائق الرتيب يرن في أذنه رغم بدء الرحلة، رحلة مواجهة الموت. ظل ينادي في الفراغ حتى وصل، كأنما كان يناديه من داخله.

وصل الراكب الأخير الذي استجلى جميع الأسرار.. لم يشعروا به حين ركب من ملل الانتظار، رأوه ولم يروه، اندسّ بينهم في هدوء أشبه بالخفاء، انطلق السائق واستغرق الركاب في أحاديث جانبية، أما هو فقد شرد في فكرة تصحبه منذ وقت بعيد، الموت.

حبيسٌ داخل بالونة خوفه، يراهم حيثما يذهب، يتربصون به وبابنه وزوجته وكل تفاصيل حياته، لم يعد يهنأ بنومٍ ولا يقظة، أصبحت الحياة انتظارًا ثقيلًا للموت.. بمن يبدأون؟

التهم السائق الطريق التهامًا ورنا الصمت في الميكروباص المنطلق بقوة النبوءات السوداء والقدر الخفي، ظلت الأفكار تدق كالطبل في رأسه وهو ثابت العينين، ما من شيء يراه، استسلم للطريق، عاد إلى البدايات البشيرة.

كانت الآمال تحمله في وثباتها نحو أحلامه. بدأ في محل سبّاك صغير ضيق أسود الحوائط يتزعمه الأسطى حسونة، ذلك المكير القصير الذي يعيش كمتسول بين الناس نهارًا ثمَّ يضويه الليل في محله المزدحم بمواسير الحديد فيدس في جيبه ما لا وقت لديه ليحصيه، أموال تتكدس كمياه تتجمع في هدوء وإصرار ثمَّ لا يفتح لها سبيل، كيف استطاع أن يدّعي الفقر حتى على صبيانه، يستنزفهم حتى آخر رمق بأثمان بخسة ويضن عليهم حتى بتعلم الصنعة.

صبر وعمل لديه طوعًا وكرهًا، امتلأت قدماه

بالوحل، مشت فوق يديه الصراصير، تعلّق بالحبال في المناور الضيقة، غار القيعان القذرة. ادخر وادخر حتى تجمعت لديه من الفتات آلاف الجنيهات ثمَّ قرر أن يتخذ محلًا لنفسه، لا بد من سبيل للماء قبل أن يأسن.

هذا المحل المهجور على بعد خطوات، لماذا لا يبحث عن صاحبه ويعرض عليه إيجارًا معقولًا؟

اعتبرها الأسطى حسونة خيانة لكنه كان قد طوى صفحته.

قرر أن يسبقه بخطوة ويضيف التجارة إلى الصنعة.. ملأ المحل ببضاعة تلزمه وتلزم أي سبّاك بمن فيهم حسونة السبّاك نفسه.. مَيَّز نفسه عنه بخطوة رآها أكثر ضرورة، وهي أن يحسن معاملة صبيانه.

انتعش وتألق، أصبحت الحياة بحرًا لا نهاية لاتساعه.. عندما أراد أن يتخذ الخطوة التالية خذله الواقع.. رفضه أهل العروس، "لست سوى سبّاك".

سريعًا، استعمل "الكوع" وغير المجرَى، ذهب إلى غيرها، لم يكن حبًا بقدر ما كان اختيارًا متاحًا.. كانت لؤلؤة.. أنجبت يوسف وصارت روحه وقرة عينيه وبهجة الحياة. استبدل الناس اسمه محسن باسم "أبو يوسف"، جعل كنيته الجديدة يافطة المحل.

زاد الصبيان بزيادة الأعمال وأحبوا العمل معه، اختصّ منهم شريف الصغير القادم من الصعيد وربيع، المتمرد دومًا، بالقيادة.. كان في مثل سنيهما حين بدأ.

علّمهما فنون الحل والربط ومهارة تغيير المسارات، أساس الصنعة، "لا تعجز المواسير الحديدية حين يقف أمامها عائق، تستعين بكوع صغير أو بحرف T فتتخذ تفريعات جديدة، كونا في صلابة الحديد دون أن تفقدا مهارة المسار ". منحهما التجربة كاملة وصدَّرَهما كأسطوات أمام الزبائن.

كان شريف صبيه الأثير.. عذبًا ورقيقًا كالماء، لكنه صامت كالحديد. ألقت به الأقدار في يد أمٍ لا هم لها سوى جمع المال، اخوته يعملون نظير إطعامهم، لم تراع فيهم إلًا ولا ذمة.. نهرته يومًا لأنه يضيع وقته باللعب بالعجلة، حملتها وألقتها أرضًا وأرسلته لتنظيف زريبة الغفير.

قضى نهارًا كاملًا بين روث البهائم في زريبة الغفير، عاد فوجد الغفير فوقها.. رآهما من شق الباب، لمحته فطردته صارخة، بقيت يداها ناشبة في قفا الغفير.. ظلت عيناها مسمّرة بعينيه غائبة في نشوتها.. انحسر الإيشارب عن شعرها الجعد.. أبداها الشبق امرأة غير أمه.. كان سلاح الغفير منتصبًا على الحائط بجوار عجلته المعوجة.

ظل ماشيًا بمحاذاة قضيب القطار حتى وصل إلى القاهرة، لفحه هواء القطار واخترقه الصهد، امتزج الصفير والهواء بمشهد نشوتها اللاهب فكان أشد فتكًا من عجلات القطار.. نظرة عينيها الغافلة عن انكسار قلبه في تلك اللحظة كان أشد دويًا من صفير القطار، فكر غير مرة أن يلقي بنفسه تحت عجلاته. مشى بلا نهاية ووصل إلى محسن وقد تقطع الحذاء.. ارتمى أمام المحل وظل نائمًا بعدها يوما كاملًا.

احتضنه ومنحه المحل ليبيت فيه وبعد وقت غير قليل اتصل بهم في الصعيد ليخبرهم أن الفتى لديه، واشترى له عجلة مستعملة.

أما ربيع، فكان وجهًا آخر، هادئًا كذئب، لمّاحًا ذكيًا، في نظرة عينيه وداعة وخبث وغايات لا يعرفها سواه.. يؤمن محسن أن النفوس قابلة للجلاء كما ينظف الماء كل شيء.

لا يغادر شريف المحل، يرص البضاعة، ينظف ويسأل ويتعلم أو يزين العجلة التي اشتراها له أبو يوسف، أما ربيع فكان يستغل كل لحظة فراغ للذهاب إلى ناهد، وكثيرًا ما

ذهب معها بعد العمل متعلّلا بمساعدتها لغلق المحل وحمل احتياجاتها.

بقيا صديقين بفضل مؤالفة الأسطى لقلبيهما، كان التباين بينهما واضحًا. لم يكن شريف يأنف من الماء القذر، أما ربيع فكان سبّاكًا متأنقًا شديد الأنفة، يتحول لوجيهٍ أمثل حين يستحم ويبدل ملابسه بعد المغرب، يسدل خصلة على جبينه ويذهب لمساعدة ناهد، وينتظر من الناس جميعا أن تنسى ربيع السبّاك.. خلافه لا ينقطع مع شريف حول قتل الصراصير. ربيع يدوس أي صرصار يراه أما شريف فيلومه دومًا لومًا طفوليًا يضحكه.. لعل الصرصار كان يبحث عن شيء لأولاده، فيكون رد ربيع دائمًا:

"خلاص نقتل ولاده".

"أنت معندكش رحمه؟".

"وأنت يعني اللي كان عندك رحمه لما طحنت صلاح".

*****

سدادة غليظة عطلت سير المياه...

في صباح كئيب كانت أقدام تعدو إلى المحل وحوله في توتر بالغ ولهفة حسيرة تسود العيون.. وأميرة تبكي في طفولة وتسأل عن معنى الموت وصابر بيضة يطوف بالخبر على كل من يراه:

"شريف وقع من على الحبل من الدور الرابع ومات"،

"محسن مقبوض عليه في القسم".

كان شريف وربيع يُركّبان مواسير صرف في أحد المناور، وكان الحبل مربوطًا على وسط شريف متدليًا به وبالأعلى ربيع.. سقط وتلاطم بين الحوائط فتحطمت جمجمته وضلوعه.. كانت نبرة صابر ترق في الجملة الأخيرة وتكاد تغلبه الدموع.

وكانت أميرة طفلة تردد الكلمات بغير أن تعيها، لكنها تدرك من عيون الآخرين أن الموت مؤلم وأن شريف ذهب بلا عودة.. كل الأطفال بكته.

مرّت فترة التحقيقات قاسية، ولسبب لا يدريه أحد أصبح محسن هو المتهم المُلام.

قال الأسطى القديم: "هو دا القتل بعينه، هي الحكاية لعبة.. الصنعة ليها أصول.. إزاي يتعلق عيل عند ستاشر سنة على الحبل؟".

كان كل ما يرجوه أثناء التحقيقات أن يمنحوه الفرصة ليحزن على شريف الذي أحبه كولده، أن يبكي بكاءًا أسطوريًا على فتى لم يهنأ بالحياة.. كان على وشك أن يفاجئه بفتح محل جديد يكون هو المسئول عنه. كان يوشك أن يرى ابتسامته خالية من أي كدر.

ارتجّ الميكروباص براكبيه عندما مر بأحد المطبات، استيقظ بعض النائمين ثمَّ عادوا لنومهم بعد جملة لوم للسائق المتسارع كالبرق.

"إيه ياسطى انت داخل سبق ولا عندك معاد؟!".

انتهت التحقيقات ثمَّ بدأت المعاناة الحقيقية مع أهل الفقيد.

جاءت عصبة كبيرة من رجال ونساء.. ترنح بينهم كما ترنح شريف بين الحوائط.. ناحت الأم بحسرة على أملها.. أنت الآن أمه! لعلك لم تعرفي شكله عند الدفن.

أجاب على أسئلتهم في تحد وقلق، كان أحدهم متفرغًا فقط للنظر إليه في كره بغيض، لم يكن يتحدث مثلهم بل كان يتشرب ملامحه في غل كأنما يحفظها.. أربكته نظرته وهزمته أسئلتهم التي لم تتوقف من هنا وهناك. لا يسكت أحدهم حتى يتكلم الآخر، سألوه في النهاية عن عرق شريف وشقاه، لا بد أنه ادخر مالًا فأين هو؟ رغم الصداع والدوي الهائل كانت

النظرة المسددة من هناك همه الأكبر.

انتحى به الأسطى محمود جانبًا وطلب منه ألا يهتز: "تماسك".

كان بالفعل يخفي له فوق يوميته أجرًا خفيًا كان ينوي أن يفاجئه به مع المحل الجديد.. أعطاه لهم، هل يعوضهم مالُ الأرض عن ذلك الوجه الحبيب؟

عادوا مرة أخرى وأخرى، ألمحوا إلى الثأر ومرارة الفقد وعاره، كلماتهم كالصواعق وهديرهم كالموج، صاخب ومكثف، نظرة الرجل غليظ الملامح ثاقبة كالسهم الصائب.. تطارده.

لم يجد في نفسه القدرة على تغيير المسار.

كان ربيع زاويًا في صمت طوال الوقت، يدافع المجهول والخوف ومعايشة اللحظة التي مات فيها صاحبه، يرعد في أذنه صوت ارتطامه بالجدران والأرض.

كعادته لم يكن يرفع عينيه إلا قليلًا.

لم يكن في وسعه المناورة، لكن الأسطى محمود النجار توصّل معهم لاتفاق أرضاهم.. خمسة الآفة جنيه.. الضنا غالي.

"هذا ما عندنا لكم، أو ها هو الأسطى أمامكم، اقتلوه واسترجعوا ابنكم، الذي كان بالأساس ابننا".

أبدت الأم امتعاضًا مصطنعًا، لكنها وافقت لما رأت جدية العرض وصرامة النجار. شعرت أنه فصل الكلام.. ذهبت.. واختفى ربيع بعدها.

لم تكن النهاية كما أراد، فالأم عادت بعد شهرين تخبره عن حسرتها على ولدها الذي كانت ترجوه وتدخره لقادم الأيام.. تعمدت المجيء في يوم أحدٍ غاب فيه النجار.

قالت: "إنهم يحملون العار في الصعيد؛ يُعَيِّرهم الناس هناك

أنهم قبلوا الدّية في ولدهم وضيعوا دمه؛ أعطاها مالًا، أوصته بالحيطة والحذر. أراد أن يسألها عن سلاح الغفير، هل ادخرته للأيام أيضًا".

كانت تتكلم وهو يوجه إليها نظرة حانقة فيها بغض العالم.. تذكر بكاء شريف حين أسرَّ له بقصته: "لم تتوقف حتى حين رأتني".

سار الميكروباص في أكثر الطرق وعورة وجميع الركاب نيام.. تعجب من السائق الذي لا يهدئ سرعته رغم صعوبة السير وعدم وضوح المعالم! هل سيعود من هذه الرحلة أم قدر أن تكون الرحلة الأخيرة؟ ليته يعود للحظة يضم يوسف ولده مرة أخرى.

تجرأت في الزيارة الأخيرة، اعترضت على المبلغ المدفوع، هددته إنها ستترك الرجال يتصرفون، دسّت له فكرة: "لا يغريَّنك الوقت فإنهم لن يهملوك.. يجيدون طمأنة الضحية ليقل الحذر".

في طريقه إلى منزله البعيد بالبساتين كان يتوقعهم من كل جانب.. لم يكن مُطمئنًا له دائمًا إلا قول الأسطى محمود النجار:

"دي ناس وسخه.. دي ممكن تبعت لك عيل تاني يموت بفلوس".

تكدّرت فرحته بابنه وزوجته، ملأه الخوف عليهما..

الأيام تمر بطيئة وثقيلة وهم يغدّون خوفه بين الحين والآخر بأساليب جديدة.. أبلغه صابر بيضة أن أربعة رجال سألوا عليه ليلًا.. شكلهم غريب ويتحدثون بلهجة صعيدية.. كعادته يضيف على القصص ضخامة تليق بالحدث.. حذره مرارًا من شراسة عيونهم.

باع شقته البعيدة بأدنى سعر.. اشترى أخرى ضيقة

دانية السقف بشكلٍ مملٍ، لكنها قريبة من بيت أهل زوجته ولم يخبر أحدًا بمكانه الجديد.

أشهر مرت وهو في تربصه الوجل، كلما مرّ ذو جلباب أو غريب ظن أن الوقت حان. فوجئ بضعف شديد في بصره وصداع مزمن؛ لا بد أني سأموت قطعة قطعة، الكوابيس والرؤى مزمنة ومحبطة، كلفته عملية المياه الزرقاء آلافًا أخرى.

في قرارة نفسه كان حزينًا وخائفًا أن يكون هو من ضيع شريف.. انتشر البياض في رأسه سريعًا كالعفن فوق رغيف يابس، بدأ نزيف الحياة.. ماذا لو قتلوه اليوم أو غدًا! ماذا سيقول لربه؟ عرضته للموت لأني أردت أن أفتح له محلا يديره في البساتين المكتظّة بالسكان.

قرر أن يلزم المسجد، لعله يموت ساجدًا أو راكعًا أو على الأقل متوضئًا.. شيئًا فشيئًا خرج من إسار العادة إلى عشق صلاة الجماعة؛ عبادة الخوف هدته إلى عبادة اليقين..

في لحظة مقدّسة تدبرت نفسه فكرة الموت ووجد فيها حكمة بالغة أرقى من أن يحاط بها.. نقطة وصول نسعى نحوها في كل لحظة، لقاء الله الذي يعرف السر وأخفى. لم يعد يخشى الموت بقدر ما خشي ما بعده، في لحظة قرر أن يتخلص من خوفه.

جاءه ربيع بعد غياب طويل مهموما متكدّر النفس.. ناظرًا لأسفل كعادته، يريد أن يزيح شيئًا عن صدره.

"تعلق شريف بيديه لكنه انفلت.. الماء والعرق والتعب...".

كان إصلاح الماسورة قد تم بالفعل.. كنت أفكر وأنا أمد يدي لأرفعه في نجاحه المبهر في تلك "الشغلانة" ورشاقته في المناور المستحيلة عليّ. كنت أعلم إنها تأشيرة المحل الجديد.. لم يكن سرًا أنك ستجعله الأسطى.

احتضنه لكنه قال شيئًا آخر وهو في حضنه فأرسله..
"صلاح السادومي استأجر الحبل قبلها بيوم".
أجهش ربيع بالبكاء وهو يقول مسرعًا كمن يتخلص من عبء ثقيل:
"وكان عارف تفاصيل الشغلانة.. هو اللي عمل كهربة العمارة، وأنا اللي كنت بارتب لأم شريف مواعيد الزيارة وباقولهم أخبارك".
نظر اليه نظرة طويلة غامضة..
أكنت ضعيف النظر بهذه الدرجة؟!
قرر الذهاب إليهم.. سيفجر بالونة خوفه.
صلّى الفجر ثمَّ قبّل الصغير النائم.. أوصى زوجته بما عليها أن تفعل إن لم يعد. ملأ منهما عينيه ثمَّ انتقل إلى موقف ميكروباص أسيوط.. في نفس التوقيت كانت قوة من الشرطة تداهم صلاح السادومي. أُعدِم بعد ذلك واختفى ربيع ولم يعد للحلمية.

*****

كان الضباب جاثمًا فوق المدينة والكآبة تملأ نفسه.. قرع صوت السائق أذنيه وهو يكرر نداءه الرتيب: أسيوط أسيوط.. ركب خلفه تمامًا.. كل الاحتمالات قائمة في ذلك البلد البعيد.
انتظر كثيرًا قبل أن يأتي الراكب الأخير لكنه لم يكن يشعر بالوقت، كان غارقًا في صمت أسطوري عميق والسائق ينادي بكل اتجاه ويبلغ بالصوت كل مدى بحثًا عن راكبه، كأنما يستدعي ما هو أهم من راكب.. طال الوقت والملل في انتظار الراكب.. أفاق على جدل بين الركاب والسائق حتى طلب أحدهم أن يتحرك بغير الراكب وسيتكفّل بأجرته لكن السائق رفض في إباء مدهش وقال:

"لن أتحرك قبل أن يأتي الراكب، لا أريد صدقة".
هدّد بعضهم بالنزول فتعلل السائق بتسخين السيارة ونادى مرتين أخريين حتى أتى الراكب المنتظر.

أثناء الطريق عادت له ذكرى شريف في لمحات يراها بعينيه.. طفولته وصمته، لعبه القليل، عقدته التي أسكنت في عينيه الحزن حتى مات، عجلته وابتسامته العذبة التي تحمل شمس الصعيد وتلك الخطوط على جبهته الصغيرة، عشقه لكلاب الحي وتعلق الأطفال له، دموعه القريبة، شوقه الدائم لحضن أب، بكاؤه الغزير كلما احتضنه.

انطلق السائق بسرعة غير طبيعية.. يأكل الطريق أكلًا.. يصحو أحدهم فيطالبه بالتروي لكنه لا يعبأ.. بدأت الشمس تمنح الطريق وضوحًا وسخونة، بدا الأفقُ ممتدًا أمامه بلا حدود، يدعوه، يستدعيه.. فيسرع.

أشار له الراكبُ الأخير إشارةً لم يلمحها سواه.. ربما في المرآة.. أوقف محرك السيارة ونزل الراكب في الصحراء.. في مكان لا يحتوي استراحة ولا مكانًا يقضي فيه حاجته.. كانت الشمس قد توسطت السماء.. استرخى السائق برأسه على عجلة القيادة.. سكنت الحركة وهدأت الأصوات تمامًا.. بدأ النائم يصحو والصامت يبحث عمن يحادثه.
تأخّر الراكب وبدأ تململ الركاب في مقاعدهم.. ماذا ينتظر السائق؟
أجاب آخر:
: ينتظر الراكب.. تاني.
: أي راكب؟
لم يستطع أحدٌ تذكر ملامحه.. مرّ وقت ولم يعد.

طلب منه أحدهم أن يوقظ السائق بصفته الأقرب إليه.. هزّه بيديه لكنه لم يتحرك.. مات على عجلة القيادة، ارتبك

الركاب جميعًا.. هو الأقرب إلى السائق وإلى الموت.. أين الراكب الغريب الذي نزل.. أرادوا أن يشكروه لأنه أوقف السائق.. لماتوا جميعًا لو مات السائق أثناء القيادة.. لم يعد حتى الآن. دخلوا في صخب وجدال في محاولة تذكر ملامحه وأنكر بعضهم وجوده أصلًا من البداية.. لم يتذكر أيهم شكله أو ملابسه.

أما هو.. أبو يوسف، فقد خرج من ذلك كله ولم يعد الأمر له مدهشًا.. أفاق من غفلة أخرى وقرر أن يعود.. وقف في الجهة الأخرى منتظرًا ميكروباص آخر يعود به إلى يوسف.. إلى الحياة.

*****

المحـضـر

صيدلية "النجاة" تبيع الموت في شارعنا وتنشر القبح مكان الشفاء.

أدرك المدمنون -حين عزَّت المخدرات- أن لبعض الأدوية قدرة ساحرة على "عمل دماغ" إذا شربت زجاجتها كاملة.. أو بسحق بعض أنواع البرشام وسحبها عن طريق الشم.

تأسف النفس حين ترى المراهقين وهم في قبح الإدمان تائهين في عالم مبهم ليس فيه ما يسؤهم.. تتحقق فيه القدرة على تحقيق كل ما هو صعب أو خيالي أو مستحيل ويتجدد فيه الإحساس، كلما خبا، بأنهم فوق البشر وفوق الحياة وفوق المنطق والحدود والزمن.. تتماهى فيه الصور ثمَّ تتشكل كما تريد، يسقط العقل ويسقط العالم وينشأ عالم بديل يشعر داخل دائرته بالقدرة على كل شيء.. بينما هو خارجها يترنح.

ثلاثة أصدقاء، محمد وأيمن وحسام، زبائني الرائعون.. الجسد والقلب والعقل، القوة والمشاعر النبيلة والعقل الرشيد..

محمد كامل؛ الهادئ الوديع تورط في جريمة قتل أودت به إلى المشنقة.. بدأت رذيلته عند الصيدلي وانتهت بخنق فتاة كان يعاشرها في إحدى مراحل السقوط.. تضاجعا، تناقشا عاريين، تعاركا.. انتهت.

نشأ بين أبوين خافتين، لا يعرف الأب شيئًا غير الوظيفة، لا يؤمن بالتجربة ويتجنب الاختلاط، يعمل بإخلاص وأمانة ودقة، ما إن ينتهي دوامه ويصل بيته فيرتدي بيجامته حتى ينفصل تمامًا عن العالم، لا يريد أي تماس معه، وأمٍ تخاف كل شيء في الحياة، بدءا من القطط الصغيرة حتى نور

الشمس والهواء الناتج عن فتح الشبابيك والجماع أثناء النهار.. أثاث البيت عتيق والإضاءة كابية.. لا صوت يعلو في بيتهم فوق صوت الصمت.

نشأ بينهما هادئًا مثلهما، لكن حين شب عن الطوق وجد أصدقاءً يخوضون التجارب ويخترقون الحدود.. تاق للانطلاق.. أدرك معنى الحرية وشرب منها حتى الثمالة، خاض في الوحل والليل وكسر كل التابوهات.

أرعب سكان البيت وأرعب أباه وأمه، سرق وتهجم وعرف طريق الصيدلية.. أما الفتاة فهي ابنة لقهوجي لا يبصر في الدنيا غير الأفيون، وامرأة تبيع الجرائد وتبيع ما يريد أي زبون.. ليس أضيع للعيال من أبوين ضائعين بالأساس.. كانت كأي شيء في الطريق، كالهواء والتراب بلا ثمن، تعامل جسدها كمن يعامل قطعة نقود؛ ترسو في أي يد، لكنها كانت عنيدة كالريح، إذا انفجر بركانها طالت حممه كل مكان، تحرق وتشوي.. اختلفا، تَسَّابَا، انطلق لسانها يرعد في كل اتجاه.. لا شيء يوقفها.. خنقها بسلك مكواة ثمَّ نزل هادئًا إلى قسم الشرطة.

وأيمن، الأسمر الجميل، قرة عين أبيه الحاج رشيد وبهجة الشارع.. أصابه السل ثمَّ مات في الثالثة والعشرين وهو يدرس في الجامعة الأمريكية. كان في يديه كل شيء.. كان الأشيك والأغنى بين أصحابه لكنه غوى وهوى. غار الجرح في شارعنا وتعمق الأسى في كل من عرف أيمن الذي لم يكن يمكن أن يمر عليك دون أن يترك ذكرى..

"كيف تحولت الحمائم إلى كواسر تقتل أو تموت.".

*****

في أحد المحلات الهادئة كان حسام المنجد مشغولًا بتنجيد أحد الكراسي حين زاره أحدهم.. كان يعشق هذا

الكرسي بشكل خاص.. كساه بقماش فارسي نادر وزينه بمسامير "طوسي مبتنة" فأوحى الطراز بفوتيه فخيم، كان يريد أن ينتهي منه قبل السادسة.

لم يكن صديقًا بالمعنى المفهوم ولكنه كان يعرفه وكان يريد المكان أكثر مما يريده. دخل، سلم، جلس: أنا عايز اعمل معاك واجب.

قال المنجد: الله يكرمك.. أهلًا وسهلًا.. تشرب إيه؟

نظر في عينيه قليلًا وعلى وجهه ابتسامة ساخرة بلا معنى ثمَّ أخرج من سترته زجاجة مدسوسة بإحكام وقال انت اللي هتشرب معايا.

انقبض قلب حسام حين رأى الزجاجة؛ وقال بصوت حاسم:

لأ.. مش هنا.

- انت بتخاف ولا ايه؟

استمر كأنما لا يسمعه.. انتفض حسام دافعًا الكرسي أمامه.. ثمَّ دفعه.. لم يكن يقصد بدء معركة.. ولكن صوت ارتطام الكرسي وغضبة وجهه ودفعه للفتى الضخم كان موحيًا ببدء المعركة.

توقف للحظة كأنما يريد أن يقول إنه لا ينوي ذلك.. طال الدواء قماش الفوتيه فأحدث بقعة واسعة.. وقوع الزجاجة وضياع ما فيها كان في نظر الآخر إهانة بالغة؛ لقد قطع عليه مزاجه الذي فر به من بين أنياب المخبرين.

اندفع نحو حسام في شراسة وأمسكه بقوة.. وجد حسام نفسه في معركة ظلّ فيها يدفع عن نفسه فقط.. دار به خصمه دون غلبة.. تذكر صديقا أثيرًا كان يريد أن يضربه ليفيق مما هو فيه.. لكن الموت سبقه.. اشتبكًا في صراع بدا أنه ممتدٌ منذ الأزل.. ربما أراد أن يحتضنه وهو يضربه متذكرًا أيمن.

اندفعًا خارج المحل، التف الناس حولهما وفرقوهما.

اندهش حسام إذ وجد في نفسه القدرة على هزيمة هذا الثور.. تورط في الأمر كله ورغم ذلك انتصر.

منعوا الثور الجريح عنه، كانت رغبته في العراك قد تضاعفت؛ من أجل الزجاجة ثمَّ من أجل الهزيمة. لطمه أحدهم على وجهه، ارتد صوت اللطمة في قلب حسام وتذكر بعد ذلك أن ذلك آلمه.

كان يريد لكل ذلك أن ينتهي، أن يعود إلى كراسيه ويمارس الشوق للقاء الحبيبة، ميعاد السادسة أمام المكتبة.

بعد جدل كثير وصخب نظر له الثور بتوعد ونظر إليه حسام بحياد ثمَّ مضى الجميع.

انتهى من كراسيه ونسي الأمر بعد قليل؛ ثمَّ ارتدى ملابسه في أمان يُظلل شبابه كله ومضى إلى رفيقته.

*****

عندما جاءني ليحلق ذقنه كان كل حديثه عن أيمن ومأساة السُّل.. لم يكن عن المعركة.. كان حزينًا على القماش الذي فسد...

عندما كان معها، لم يقصصْ عليها ما حدث ولم يكن يريد لهذه اللحظة أن تتكدر. ومعها نسي الأمر كله.. سألته عن ندبة في وجهه فقل لها أحبك.

في نهار اليوم التالي جاء مخبر من القسم يسأل عن حسام عبد الهادي لأنه اعتدى على المواطن علاء المكاوي وأحدث به إصابات خطيرة مما استلزم علاجًا أكثر من واحد وعشرين يومًا.. مرفق بالمحضر تقرير طبي لكسور وكدمات في وجه وأعضاء المذكور.. مع سرقة ساعته.

لم يكن حسام قد وصل بعد، لكن بمجرد ظهوره فوجئ بالحاج رشيد يخرج خصيصًا لمقابلته ويدعوه لدخول المعرض والأسطى محمود ومجموعة من كبار الشارع ينصحونه

بسرعة التوجه إلى خصمه وإرضائه حتى لا تكون قضية "وياخد حكم".

أذهلته الكلمة الأخيرة، لماذا لا يصعد إلى القسم فورًا ويشرح لهم الأمر كله؟ تقرير طبي، سرقة، إرضاؤه؟ أي عالم هذا.. تزعزع سلام نفسه.. لو طلع القسم لقبضوا عليه.

خرج من عندهم. تعلقت عيناه بحمامة على شجرة ساكنة والريح ساكن، ما أسعدها.. لعلها إن ضربها شيء تطير عاليًا. ذهب إلى محله.. ثمَّ إلى بيته.. ظل طوال الليل في هلع وتربص.. بعد ليل طويل ونهار ممل جاء وائل فتحي، صاحب الصلات الوطيدة بضباط القسم والباع الطويل في معاملة الإجرام.

"متخافش، التقرير الطبي مش مشكلة.. بعشرة جنيه أجيبلك من المستشفى تقرير إنك ميت.. لأ.. انت تكسر أي حاجة في المحل.. كرسي، مرايا، ونطلع نعمل له محضر إتلاف.. ويبقى محضر بمحضر".

يكره حسام طريقة كلامه وصوته العالي.. إنه يزاحم نفسه.. ربما كان خصمه الآن يضحك بين ندمائه.

استأنف وائل: اقولك.. عندي حل تاني.. قوم هات موس من عند سامي الحلّاق.. قوم.. اسمع كلامي.

كان كالريشة في مهب الريح.. أسلم نفسه في قياد الجميع.. جاؤوا بالموس.. أمسك وائل بيديه وبدأ في تشريح ظهر كفه بالموس.. كاد حسام يجهل نفسه – ماذا يحدث – ربما كان هذا هو الحل.

أتاه صديقه المحامي.. أفهمه أن كل هذا لغو.. ماذا يفعل؟ لن يكون لمحضره هذا أي قيمة لأن الآخر كان له السبق.. لكن وائل ومعرفته للضابط وزحام نفسه والآخرين.. كل ذلك كان أقوى.

أخذه وائل إلى الضابط صديقه في القسم.

كان الضابط النوبتجي يعاني من ملل ورتابة.. وربما كان من التفكير في ليلة طويلة – غير مبهجة – يقضيها في القسم.

استقبلهما بابتسامة كسلى.. كان متكئًا وأشار بغير اكتراث أن أقبلا.. كتب محضر الإصابة بتراخ.. عندما استدار حسام للخروج "غمز "وائل للضابط بإشارة تعني "لنمزح قليلًا ما دام الأمر قد انتهى"، وبالفعل مزحا قليلًا...

نادى الضابط على حسام –الذي كان قد أوشك على الخروج– بحسم وبلهجة حادة: خد يلا.

استدار، ظن أنه غير المقصود.. فوجئ بتغير اللهجة..

قال الضابط بقسوة:

- انت بتضحك عليا يا روح أمك؟! بتعور نفسك؟!

أزعجه أنه انكشف.. هذه هي الحقيقة.. لكننا كنا نتعامل كأصدقاء.

- أنا حاعلمك الأدب، يا شاويش، خده ع الحجز، عند "سامبو".

نظر حسام إلى وائل، وجده خافتًا معرضًا كسلحفاة.

اقترب الشاويش منه.. بالفعل يأخذه.. بالفعل يفتح الزنزانة.. وبالفعل أدخله وأقفلها ومضى.. وبالداخل كانت الوجوه في منتهَ القتامة والجهامة.. كانوا كلهم "سامبو" المرعب.. مرّت لحظة أطول من الحياة كلها.. تذكر الحمامة، ليتها تطير.

اقترب منه أحد المساجين؛ وقال:

- متخافش، بيهزورامعاك.

أي "هزار"! لقد انسحقت روحه.. لم تهدأ نفسه حين علم إنها مزحة. شعر بمهانة أعمق.. لا يمكن أن يكون العبث

بالكرامة مزحة..
أخرجه الضابط بعد دقائق.. كان يضحك ووائل كان يضحك:
"شفت سامبو"؟!
استمر ضحك وائل والضابط.. شعر بأسى شديد.. كان في هذه اللحظة. خاليًا وفارغًا من كل المعاني.. من معي ومن ضدي.
في الصباح ذهب مع الأسطى محمود إلى منزل علاء المكاوي:
"أنا ممكن أضيعك بس أنا عامل خاطر للراجل البركه".
ابتسم كالباكي.. وافق على أن يتنازل عن المحضر مقابل ستين جنيهًا "وعشان خاطر الأسطى محمود". دفعها صاغرًا.. كان محضره كيديًا بلا قيمة.. ثمَّ ذهبوا جميعًا إلى الشهر العقاري لتوثيق الصلح..
عزمهما الأسطى محمود على الإفطار وتوصيلة التاكسي ذهابًا وإيابًا. كان علاء المكاوي أثناء كل ذلك كالأمير.. تاكسي رايح وتاكسي جاي وفطار وستون جنيهًا.
اتكأ على كرسيه بجوار السائق. أغلق النافذة بجواره وأخرج من جيبه سيجارتين ملفوفتين بإحكام، أعطى إحداها للسائق، تناولها مبتسمًا. وخلفهما حسام وعم محمود، كلٌ ينظر في جهته من شباك السيارة.

*****

لحـــظة

أيمكن أن تكون لك لحظة خاصة! أم ليس أثناء العمل؟

أن تجد الفكرة التي يمكن أن تستغرقك في متعة أم تشتتك أشياءٌ في منتهَ البعد عما تريد! تريد أن تكتب خاطرة.. تسرق من بين الزبائن لحظة، تحتشد لها بكل ما تملك من أفكار. يعذبك استطراد الألفاظ وصوغ المتن وصعوبة الإحاطة.. وعندما تسرق اللحظة، يدخل أحدهم ليحلق.. لا ضير؛ فلهذا فتحت.

تحاول أن تكون معه يدًا وعينًا، لكن قلبك وعقلك في عالمك الخاص. لكنه، لسوء الطالع، يريد أن يحدثك عن الأهلي والإسماعيلي وتربص الزمالك.. لا بأس من ردود خاطفة تجاريه بها وتسمح لك في نفس الوقت أن تسترسل في أفكارك.. يُعَقِّدُ عليك الأمرَ فيسألك عن رأيك.. فلتخرج من عالمك بإجابة عامة:

"مفيش كوره في مصر".

سريعًا تعود ويتفضل عليك الزبون بالصمت؛ ربما قرأ في نفسك نية التعوير إن زاد بكلمة.

توشك أن تكتمل فكرة القصة وأنت تحلق في سلام..

"الرجل الذي أوشك العالم أن ينسى وجوده يريد أن يلتقط نصيبه من الحياة "، فلتدخر الكلمات في ذهنك لتكتبها بمجرد أن تفرغ.

يدخل الجار:

"شفت الناس؟ عماله تلّم سكر من الجمعية".

يرد الزبون: "الناس هى اللي بتعمل الأزمة".

يدخلان في مناقشة حامية حول أسباب الفساد.

ليشتبكا ويدعاني.. لكن الصوت يعلو حين يتسع

الحوار ليشمل كل أحوال البلد وكيف ينهبها الكبار.. لا بد أن يعلو الصوت ليكتمل التعبير عن الاحتجاج.. محلّى صغير.. من لي؟ أيتها القصيدة، مساحتك في ذهني تتقلص.. ألا تنتهي هذه الحلاقة أبدًا! يسأم الزبون من لجاجة الدخيل فيخرج من النقاش إليّ:

- باقولك يا سمسم، ما تظبط الشعر بالمرة.

- شعرك كويس.

- بس احلقه بدل ما اجيلك كمان يومين.

ينتابك إحساسان.. حاجتك للمال، والرغبة في استغلال وجود الفكرة. لا تمتنع فذلك بطر.. أتوق للحظة صمت.. أفعل لك أي شيء في الدنيا، استعبد يدي وعيني ما أردت.. لكن دع لي بعض عقلي أعش به. أشعر أنى غانية تهب جسدها لمن لا تحب بينما تفكر في مشروعها الصغير الذي يقصيها عن عَرَق البغاء.. شعره كثيفٌ جدًا، دغلٌ ملبدٌ يحول دون الوصول لكائن رقيق يبتغي التشكل.

"كلهم يتحدثون عنه.. أصبح كتابًا يقرأه الجميع".

يستمر بينهما التحاور ويستمر قلبي في محاولة التشبث بالفكرة التي قلّما تجود بالتواجد.. هي أيضًا هذه اللعينة تختار أزحم الأوقات.. جهّزت لها مقعدًا شاغرًا، عطرته بأجمل ما عندي من عطور، رششت الأرض بماء الورد بعد أن قششتها من كل الشوائب، بَخَّرتَ الهواء حولها بأروع البخور، بسطت ورقة بيضاء يملؤها الشوق، فوقها قلم كالجواد ينتظر أمر انطلاق.. مالها تبتعد وتحول بيننا الحاجة والظروف! أمدّ يدي فيُثقلُ وجودي خطوي وتحول بيننا الحوائل، يتباعد عالمانا، يأخذني الطريق العارض عن طريقي الحقيقي، ليس ما يحول بيني وبينها قابلًا للرفض، إنه الرزق والطعام والشراب.. يا لعنة الله على الاحتياج.. كن ما تكون ويمتعك أو لا تكن. تخور

قوى عقلي، يخرج الجار، يحدثك الزبون الجالس:
"يا ساتر جارك دا صوته عالي ورغاي قوي".
تبتسم، تستجمع ذاتك في كلمات، يتحرك البحث تحاول أن تستعيد نفس الروح. شخوص الرواية تضطرم في داخلك، يتحدثون ويضحكون ويبكون.. تمت الزيجة الشاذة.. يقذفون الكتب كما قذفوا كرامة الفتاة.. الجريمة والعقاب بخمسين قرش.
"فشل التجربة.. الهزيمة.. لم يكن في الوقت متسع ولا في الجسد طاقة".
تنتهِ الحلاقة.. أعجبته.. تشعر أنك عاملته بتعال.. كنت تريد أن تعتذر لو أن الوقت متاح.. يمضي.. تجلس إلى الأوراق.. يدخل صديقُك السائق في نفس اللحظة ليغسل يده ورائحة البنزين تحتل قلبك. ليغسلها وتسرع أنت إلى الورقة.. اعطه مسحوق التنظيف قبل أن يسألك.. لم تعد لديك القدرة على سماع كلمة واحدة.. أين القلم؟ يقول وهو يغسل يده مبررًا وجوده:
"أصل الكاربراتير انسد.. بقالي ساعة باسلك فيه، الله يلعن أبو العربيات، انت بتكتب جواب ولا إيه؟ أيوه يا سيدي، بالك رايق".
يتناول مشطًا ويمشط شعره، يتكلم.. يريد أن يشعرك أن صداقتكما كبيرة بما يسمح أن يستغل كل أدوات الصالون.. رشة عطر تدور حول كامل صدره، حفنة سخية متتابعة من ورق المناديل.
"قوم اعملّى فتلة بدل مانت قاعد فاضي، قوم أعمل أي حاجة، ولا عشان من غير فلوس؟ قوم خلّى الرزق ييجي، الإيد البطالة نجسة".
مَن قال يا سيدي إني لست في أعظم الرزق الآن؟

ينتهي الأمر بسرعة.. تمامًا كأمر عم وهبه.. اشتعل، تشنج، انهيار... يخرج. تجلس، أخيرًا تضع القلم.. ما أعظم الميلاد بعد المخاض.. ما زال في الذهن صبابة من فكرة كانت كبيرة.. تمارس الدلال عند الاستدعاء.. تحاول القبض على الكلمات الهاربة.

فليعمل عم وهبة في إدارة المهملات.. هذا رمز يناسب إهمال الحياة جدًا. تنغلق عن العالم وتعيش داخل رأسك والأوراق. تنتهي.

لا تهدأ نفسك.. تبحث عن شخص يقرؤك في عالمك المجدب.. يمر الوقت ولا يظهر.. لم ينتهِ الهم بميلاد القصيدة.. إنها همُ أبدي.. تقرأ ما كتبت، توشك أن تحفظه، كلمة مكان كلمة، نقطة هنا وفاصلة هناك. كل مَن كتب شيئًا ظنّه الأودسة ثمَّ تبين ضآلته شيئًا فشيئًا حين يكشف له الآخرون أنه بطيء ومعاد وبائخ وحائر ومرتبك. يكتشف صديقي "إسلام" أني سرقت الاسم من رواية شهيرة لكاتب عظيم.. هذا مقصود.. أعتمد على ما ورّثَ تاريخ الفن.. هو فعلًا عجوز آخر جاهد ليقتني سمكة يسد بها رمق آماله وقلبه، ولما اقتناها تسربت كالماء من بين يديه.. الفرق ها هنا هو أن الزمن هو الحائل وليست وحوش البحر الضارية.. بالله لا تحكم على كل شيء بمجرد العنوان. يجيبني إسلام:

"ما علينا، إنما جئت لأحلق".

أحمل ما كتبت، ابحث عمن يقرأه، لم أجد سامح الفكهاني، يبيت غالبا بجوار "الفرشة" هو الوحيد الآن الذي يمكنني التوجه إليه.

نعم، سامح الفكهاني في منتهَ التحفظ والتحفز أمام ما أكتب.. لا يحدثني إلا عن مواطن الضعف.. لا يشعرني بأي أهمية.. لكنه أحدٌ يقرأ.. يقول لي إن من يحبك لا يحدثك عن محاسِنِك

وكلما كانت الحقيقة قبيحة كان أحبُ أصدقائك هو مَن يذكرها.. على أية حال لا أجده الآن.

ليتني أجد عادل.. يقرؤني حين يقرؤني.. يشير إلى مواطن الضعف ولكنه يتحدث حديثا حقيقيا من قلب الحدث.. ويعرف ما أقصد كأنه كان في رأسي أثناء الكتابة.

جاء كالنبوءة.. قرأها بشغف.. خلع النظارة، صمت متفكرًا.. هكذا هو، يترك الكلمات تسري في عروقه.. ابتسم. لامني على التعجل ونصحني بالصبر على الفكرة حتى تختمر: "عايزه شغل، ألا تعلم أنه لا يجوز إطلاق لفظ العجوز على الرجل؟ العجوز لفظ خاص بالمرأة المسنة، أما الرجل فهو شيخ".

استدل على ذلك بآيات من القران:

- "فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ"، أكملت أنا: "عَجُوزٌ عَقِيمٌ".
- "وَهَذَا بَعْلِي"، أكملت: "شَيْخًا"،

"لكن يا عادل لفظ الشيخ ذو منحى ديني وأنا...."

- "تعرفني؛ لا أقبل التنازل في الأدب".

كل المشاعر والأفكار تتحول في النهاية إلى كلمات.. كيف تكتب؟

لا يمكن أن أسميها الشيخ والسمكة. "باقولك ايه يا أستاذ عادل.. أنا حاسسها كده.. هو أنا يعني أجدع من اللي ترجم لأرنست همنجواي؟ في حد غيرك عارف موضوع العجوز ده؟". ضحك. هل أعاند؟ لماذا يعتقد كل مؤلف أن ما خطّه هو الكمال؟ ليتني أسميتها "نصف متر". هل انتظرته كل هذا لأعارضه رغم يقيني أنه على حق؟ لأذهب بها إلى زوجتي.. لكن ذلك بعد ساعتين.

ظهر سامح، كان بجوار أبيه.. لا يستاء أبوه من إنفاق الوقت في القراءة.. يعرف قدر ابنه ويترك لعقله المساحة

الكافية من التحقق.. يأسى عليه سرًا، لكنه لا يملك إلا أن يجعله يعمل معه على الفرشة، صبرت قليلًا ثمَّ اقتحمت الحرج.
شعرت أني أقوم بدور صديقي الممل الذي كان يمشّط شعره منذ قليل، نتبادل الأدوار في مسرح الحياة.
كان قد انتهى من بيع اتنين كيلو موز وجلس يقرأ في الجريدة.
- سامح، ممكن تقرا دي؟
تأفف، أخذ الكشكول، نظر إلى الصفحة التالية، عَدَّ الأوراقَ كأنما يزنها، قرأ بغير لهفة، بعد دقيقة تململ، تربصت بعينيه وتعبيرات وجهه، لم يبدُ على أبيه الضيق، بل رحب بي. ترك له المساحة.
بدا وجه سامح زجاجيًا بغير تعبير وعيناه تنتقلان بغير ترتيب.. فاجأني بقوله: "خليها وقت تاني".
"ذهبت إلى زوجتي.. قرأت في هدوء ثمَّ أطبقت الأوراق في حنان؛ وقالت:
يعجبني دخولك في الموضوع بغير مقدمات.. بس في حاجة ناقصة.. في ألفاظ قبيحة.. عيب.. وبتكتب بالعامية كتير.. عم وهبة هيزعل.. بس بصراحه.. روعة روعة".
سألتني: "انت بتحبني وانت بتكتب الحاجات دي؟".
أيتها الصغيرة، أنا احبك أكتر من الوجود.. ومن "الحاجات دي".

*****

"عمـــاد عـفـت"
كما عرفته

عرفته حين كان بيننا، قبل أن يتحول إلى فكرة بلا حدود، ويصبح أيقونة لثورة شعب، وصورة يحملها الثوار والشيوخ والأطفال والشباب والنساء؛ فتملأ ميدان التحرير العظيم..

غيرُ قابل للاحتواء.. ومن يستطيع أن يحتوي فكرة؟

قال الذي كان بجواره حين سقط:

"لا أعرفه، مجرد شخص كان بجواري، رأيته يسقط فجأة".

عاش خفيًا نقيًا بعيدًا عن أي تكلف، لا تكاد تشعر به إذا غاب، ولا تملّ سماعه إذا تكلم، لم يسع لرتبة ولم يرجُ مكانة، شديد التواضع للكبير والصغير. ملامح بسيطة عرفها كل واحد عنه، ثمَّ اجتمعت نقاط معرفته بعد موته ليظهر عملاقًا بهيًا وجيهًا لا يستطيع الذهن أن يستوعبه ولا يصدق المرء أنه مرَّ به. لا يبحث عن أحد ولكن من أراده وجده، يستخفي حتى لتظنه هملًا من الناس، شديد الغياب والحضور في آن معًا، نحيلٌ هامس الصوت يمشي مطرقًا. عندما يتحدث، يلتفت لمحدثه بجميع جسده ولا يملُّ الحديث حتى يملَّ محدثه، شديد النصح، عذب الابتسامة.

قال عادل: لم أرَ ابتسامة تعكس سلام الروح كابتسامته.

أما عيناه فكانتا سرًّا مفردًا، فيهما حنان يوشك أن يحتضنك وفرارٌ دائم الترحال، ونظرة بين الوداعة والحياء والقرب والرحيل.

في المسجد البعيد، هو المتهجد الذي يؤم الناس بثلاثة أجزاء في قيام الليلة الواحدة من ليال العشر الأواخر من رمضان. وفي مسجد شارعنا الصغير الذي يعجُّ بالعمال،

فيخرج من المسجد وهو يسأل في تواضع، وقد أمَّ الناس بالمرسلات حدرًا، هل أطلت؟

تشهد زوجته بصدقه ووفائه؛ حتى لقد شاركها طعامًا لا يطيقه أحد بغير ملح ثلاث سنوات طوال فترة مرضها بلا تذمر. ووصل برُّه بأصدقائه أن يتوفى أحدهم صغيرًا ويظل هو بارًا بأم صاحبه خمسة وعشرين عامًا يزورها ويوادها حتى توفيت الأم قبله بأيام.

يقابله أحد تلاميذه في معرض الكتاب فَيَهمُ الرجل بتقبيل يديه فيفاجأ بعماد يكب على يديه ويأبى إلا أن يُقبلها هو أيضًا.

في سيارته، عندما اشترى واحدة في آخر عامين، كان ينادي على الواقفين أمام جامعة الأزهر "السيده عيشه السيده عيشه"، حاملًا في سيارته الطلبة وعابري السبيل ومتصدقًا ببعيره على من لا بعير له.

وبيننا نحن الحلّاقين والنجارين والسبّاكين والبسطاء، لم يكن أقل فخامة وبهاء...

عرفته أولًا منذ عشر سنوات، حين كان يأتي لصالون الحلاقة مصطحبًا شيخًا ضريرًا ذا علم جم.. كان له كالخادم الشفيق؛ يُجلس سيده ثمَّ ينتظر مهما طال الوقت في صمت وحياء منتظرًا أي إشارة من الشيخ، وفارضًا جوًا من السكينة والبهاء على المكان. كان اسم الشيخ "عابدين"، يأتيان ويمضيان معًا بغير كلمة.. عندما عرفتهما أكثر، عرفت معنى قول بعض الصوفية "إن بحرًا يمشي خلف محيط"

ثمَّ أتى عماد بأبيه إلى نفس المكان. بنفس الأدب الجم والسكون الوافر وكلاهما صموت ونحيل وساكن تستحي أن تفاتحهما بحديث، وعماد على نفس التفاني في الخدمة والصمت المحبب والاستعداد لتلبية أي إشارة.. وربما

أخرج كتيبًا ليقرأه.

وفي المرة الثالثة، سألني أن أذهب معه للبيت لأحلق لابنه الوليد بالموسى. أشفقت من التجربة على نفسي وعلى الوليد. سألته أن يذهب إلى حلّاق غيري، لكنه صمّم أن أذهب معه. أذكر حنان حضن كفيه الكبيرين على رأس الصغير محمد كأن الموسى يمشي على قلبه، عاتبني بعدها برقة لا تتخطى إخبارًا بالمعلومة، أن احمرارًا ظهرَ في رأس الوليد.

تمنّيت عليه، وما طلبت ذلك من غيره أبدًا، أن أحلقَ له شعرَه ولو مرة، لكنه اعتذر بأنه يختص شخصًا عزيزًا.

في ممشاه من البيت الى المسجد، كان يمر بشارعين أحدهما شارع النادي المظلم الموحش، مركز الموبقات.. حشيش وبانجو.. مراهقون ومراهقات وهاربون من المدارس.

وقف ذات مرة ساعة أو يكاد، حاملًا حقيبته أمام فاجرَين تحدياه وأصرًّا على عدم الحراك، بقيَ حتى ملّا هما ولم يمل عماد رغم مشاغله. الأعجب، أنه كان يذهب وحده ويتعرض للأمر وحده حتى امتنع المراهقون عن المكان خوفًا من إزعاج "الرجل الدرويش" كما أسموه. تبرع هذا الدرويش بإنارة شارع "مصطفى فاضل" كله من جيبه الشخصي؛ ما زال للآن منيرًا بأسلاك وصلّها من خاصة ماله.

وتذكُر زوجته كم فاجأها متورم العينين أزرقها من أثر الضرب.

وفي ممشاه بالشارع المقابل، كان يمر بالحلّاق والنجار والمنجد والكهربائي عند ذهابه للصلاة؛ يكفي أن يمر الشيخ ليقومَ كلُ من يراه إلى المسجد. بعضهم كان يترك الشيشة من يديه لمجرد مرور عماد. قد يرفع يده بالسلام أو يشير جهة المسجد أو ينظر إليه نظرة عتاب ومحبة، كان في مسيرته للمسجد يجمع معظم من رآه بغير كلمة واحدة، ثمَّ تراه يؤخر

قدميه قبل الإقامة حتى يؤم المصلين الإمام الراتب، وتراه صامتًا إذا أخطأ الإمام في القراءة، ومن يعلم ومن لا يعلم يرد الإمام. وتنتهِ الصلاة فيبادر مُسلمًا على من بالمسجد في تودد محبب، ثمَّ يحمل حقيبته تلك البسيطة ويمضي، فيتحلق حوله المستفتون ومحبو سماحة وجهه. يسأله هذا سؤالًا في النحو وهذا في الفُتيا وهذا عن ضيقه بخلق زوجته، فيجيبهم كأنه متفرغ لكل واحد منهم والابتسامة الحانية لا تفارقه. يقول للطالب: إن "تنزيلَ العزيز الرحيم"، نُصبت لعامل محذوف تقديره نزل، وأن الإشمام في "تَأمَنَّا عَلى يُوسُفَ" لأن العلماء لم يجدوا سببًا لفتح النون وأن هناك نونًا قبلها مضمومة محذوفة؛ فاستعاض العلماء عنها بحركة ضم الشفاه دون نطق الضمة"، ويجيب بائع البيض أن طلاق الزوجة لاستحلال معاش أبيها المتوفى ثمَّ ردها عرفيًا حرام. ويستنجد به الذي رمى زوجته بيمين الطلاق في سورة غضب، فيطلب منه أن يُشهده ويُشهد اثنين آخرين أنه قد ردَّها.. هكذا بكل بساطة، صوته لا يكاد يتخطى محدثه، لا يستقل سؤالاً ولا يستهين بسائل، ولا يتقعر لفظه، ولا يتمعر وجهه، ثمَّ يختلي به محسن السبّاك، الذي يحلم كل ليلة بلا انقطاع، فيسرد له حُلما طويلا مليئًا بالتفاصيل عن قوم يأتمرون لقتله وعماد يسمعه بلا ملل ظاهر، وما هو بمفسر الأحلام ثمَّ يجيبه بغير أن يكذبه بكلمة واحدة:

"خيرًا إن شاء الله".

ويعلم أن أحدهم في حاجة لمال فيقرضه سرًّا مبلغًا معتبرًا ولما هَمَّ الرجل برده؛ قال له:

"هذا مال خرج لله؛ فإن شئت أبقيته وإن شئت تصدقت به".

ويلمح في عين سامح نظرة حائرة، فيكلمه منفردًا ليسأله سامحٌ عن فتوى بشأن قبوله العمل مترجمًا في قاعدة

عسكرية أمريكية بدولة قطر فيفاجئه عماد بإجابة صادمة "إن الموت أهون"، فيحمد سامح الله أن خلصت رقبته من دماء الأطفال والشيوخ والأبرياء. نصحه بذلك رغم أنه هو نفسه كان متزوجًا من أمريكية أنجبت له ابنة رائعة.. كان حديثها عنه بعد موته أنه كان مثالًا للعالم الدؤوب الباحث الجاد الذي كان من شدة جده وبحثه يسقط نائمًا وهو يأكل..

دخل المسجد يومًا فوجدهم علقوا لافتة فيها "نرجوا إغلاق المحمول"، فأخرج قلمًا من جيبه بهدوء وشطب الألف من "نرجوا". قمت طبعًا متسائلًا عن السبب؛ فقال في هدوء: "الواو من أصل الفعل وليست واو الجماعة".

لم يُحاضر ولم يتعد هاتين الكلمتين.

وكان فوق هذا لطيفًا يفهم المُزحة ويحسن الرد... لم تكن الأمور جافة ولا مقتضبة.

كنت - لسوء طبع جُبلت عليه- أهوى ممازحة الأئمة.

دخلت على إمام صلّى بنا ذات يوم وفاجأته بقولي إن الذهب على الرجال حرام - ولم يكن يرتدي ذهبًا- فارتُج عليه وأخذ يقلب أصابعه وهو يقول: أي ذهب؟ تركته ومضيت وأنا أسمعه خلفي يسأل الناس: "بيقول ايه ده؟".

وقلت لآخر بعد أن صلى بنا الظهر: "إن الظهر أربع ركعات"، وكان قد صلى بنا أربعًا، فارتُج عليه وسأل الناس: "هو أنا صليت كام ركعة؟".

قلت لعماد بعد أن صلّى بنا المغرب: إن المغرب ثلاث ركعات فأجابني: "إن الدنيا تغيرت"، فارتُج عليّ أنا.

النصر الوحيد لي عليه تحقق حين كنت أناديه فيعود فيذهب فأناديه فيعود ولا أكفّ أنا عن مناداته بأي حجة ولا يكفّ هو عن العودة كل مرة بجميع جسده بلا ضجر ولا مزاح. لم أكن أعلم يومها أنه كان لا بد أن يذهب مسرعًا لأنه

المكلف في ذاك اليوم برعاية أخته المريضة.

كانت معرفتي به نزرًا يسيرًا، بقدر ما تسمح المسافة الصغيرة الفاصلة بين المسجد وصالون الحلاقة. أما ما سمعناه عن أيامه الأخيرة، فكان أشد عجبًا، وصلتنا الأنباء من محبيه وتلاميذه...

قالوا إنه كان كالروح في ميدان التحرير، يرونه هنا وهناك، ينظف الأرض ويطوف عليهم لصلاة الفجر ويغني مع المجاميع ويسمع الشعر ويهتف للوطن.. وعندما يذهب إلى بيته كان أطفاله يركبونه كالحصان.

قُتل غيلةً في الثورة.. لم يكن أحد يعرف أنه في التحرير وفي صدر كل مواجهة. لم يكن يذهب للتحرير بزي الأزهر.. لم يكن محسوبًا على الأزهر في ذهابه لسلامة الغرض من جهة ولخوفه أن يورّط الأزهر فيما بعد.

ويلومه شيخه مفتي الديار على قولته قبل أن يموت:

"إني لأجد ريح الجنة من ميدان التحرير أكثر مما وجدتها في الحرم".

لم يستغرق معه الموت لحظة. تخفى له قاتل بين الثوار وبرصاصة - لعلها تعمدت ألا تؤلمه- دخلت في جانب صدره وخرجت من الجهة الأخرى ومعها انتهى كل شيء في لحظة.

تساءلت حليمة الإندونيسية، التي أشرف على تعليمها وتزويجها وكفالتها، بعد موته:

"أما كان حريًا بهذا القاتل أن يسأله الدعاء بدلًا من قتله! أن يرى وداعة ابتسامته ورقة صوته وعذب مواساته؟ كيف دفعه وعيُه أو دفعه غيرُه، أن يغدر بمثل عماد!".

قال الصحابيُ أنس بن النضر في غزوة أحد قبل التقاء الجيشين:

"واهًا للجنة.. إني لأشم ريحها من وراء أحد".
قال مفتي الجمهورية "عرفت الآن مقصد عماد ".
"تعلمت منك الموت والمرءُ فاقدٌ.. لمعناه ما لم يكن في موته معنى"[1]
وقالت تلميذته حليمة بين دموعها:
"إن بعضهم يموت لأن الحياة غير جديرة به".
*****

[1] للشاعر محمد الفيتوري.

عاشقة العصافير

"الدائرة لا تكتمل.. تتخذ الأشياء دومًا مسارات جديدة.. تهبط الآمال خائبة في قاع النفس كحذاءٍ لن يرتديه أحد. لا تنتهِ الأحلام إلا بعد أن تمنحك القدرة على الولوج في عالمها بكل ما أوتيتَ من قوة؛ حتى إذا خابت، خابت النفس معها.. ليتها تَبين مستحيلة من البداية.. الإمكان يلقينا في أحضانها العابثة،".

كلما جاء ليحلق بدأ يسرد جزءًا من قصته بمقدمة كبيرة، المقدمات الكبيرة تُشعر المتكلم بضخامة الحدث.

"تبدأ مرحلة جديدة رغم تخلُّف القلب عن المسيرة إلا أنني أمضي.. لا أملك خيارًا آخر.. الحياة عبء ثقيل.. الأمل قد يزيدها ثقلًا ما دامت الدوائر عاصية على الاكتمال. دربت نفسي على الاستغناء عن الأماني، ما دامت مستحيلة".

استوقفتني جملته الأخيرة؛ تحمل نبضًا يستحق التفرغ، استقبلتها بحبور.. تباطأ المقص.. دنا القلب باهتمام.

"في محل الأحذية، محكومٌ عليّ دائمًا أن أكون في عيون الناس أدنى، ينظرون إليّ من خلف الفاترينة".

تعلم تجارة أبيه ومعها ناضل حتى حصل على الليسانس.. كم أرهقته هذه الشهادة! مر عليها أصحابه ببساطة.. أما هو فتعثر كثيرًا.. لم تكتمل الدائرة إلا بعد أن أصبح وجودها هامشيًا وبغير ضرورة.

فاتته الفرصة في الوظيفة، ليكن محل أبيه. مثل الآلاف غيره، خاف من فَوت الفرص بفَوات العمر، خطب إحداهن - كما اتفق- حاول جاهدًا أن يغلق هذه الدائرة الخالية من المشاعر.

"بعد البدء بقليل، يمرض الأب ويدخل في دوامة لا نهائية من

غسيل الكلى والسكر وبتر إحدى ساقيه.. تستنفد المدّخر وتهلك الآتي بالدين.. ثمَّ يموت الأب وفوق كاهلي تجارته دينٌ لا قِبَل لي به. لا تسمح الأعباء بالتوقف لالتقاط الأنفاس.. فلتتخلف الروح عن المسيرة. اضطررت لبيع الشقة التي كان اشتراها ل أبي،".

لم أجد، رغم اقتناعي بصعوبة كل هذا، جوهرًا مأساويًا. أحداث جسام مرَّت بي جعلت قلبي أكثر جَلَدًا.

راودته نفسه على الاستغناء عن خطيبته. أصبح وجودها عبئا. ليدعها علّها تجد فرصة أفضل. تعجَّب من تقبلها الأمر بسهولة.. لا بد أن الدائرة انفرجت من جهتها أيضًا.. لم تكن تنتظر أكثر من عرض الفكرة.

"تموت الأم بعد الأب بقليل.. تاركة فراغًا لا ينتهي وشرخًا في القلب والنفس لا أمل في التئامه وتعطشًا إلى حنان لا سبيل إلى ارتوائه بعد ضياع مصدره الأوفر".

مرَّ في ذهني مثل إنجليزي علمنيه أمريكي عابر لكنه حذرني أنه من قلة الذوق أن أقوله:

"death is common"

تمنى لو عادت إليه خطيبته للحظة.. ليس عشقًا لكنه احتياج.. ليتها تتجاوز الأشياء وتأتي لحظة؛ ولو لعزاء واجب.. لكنها تلاشت وكعادته يدرب نفسه على الاستغناء عما هو مستحيل.

انغرس في محل الأحذية، صَاحَبَ الأرفف، صاحبته الأحذية، تجمدت به الحياة. أورثه الموت والظلام ووحدة النفس كآبة انعكست على وجهه.. استقر الحزن على ملامحه. تاه عن جوهر الابتسامة.. لم يعد هامًا أن تصاحبه الروح في مسيرة الحياة فقد حبسها الملل والوحدة في بوتقة غير قابلة للكسر.

"في هذا الظلام لاحت.. مرت وصاحبتها أمام المحل.. كانت

عيناها قريبة وحانية رغم قصر المسافة التي يراها تمر منها. في عينيها همس أسمعه وحدي.. لكنها مسرعة كنسمة صيف هادئة. تمنيت لو تقف لحظة.. أن تسأل عن ثمن حذاء.. أن أمتلك القدرة على بدء حديث.. كان مرورها العابر أمل الحنان".

هذا شاعريٌ جدًا ولكن ماذا؟! هل جفّ قلبي فلم تعد تمسه المشاعر؟

انتظر مواعيد مرورها المنتظمة.. بادلته النظر.. عشقها بغير أن يعرفها، فتّش في نفسه عن سر إعجابه بها.. لم يكن مجرد الحنين إلى من يملأ فراغ قلبه ليس مجرد احتياج ولا عزاء واجب بل رغبة جارفة في حياة هانئة محتملة مع هاتين العينين الحانيتين. المركز الذي تدور حوله الدائرة، "فردة" الحذاء المكملة للزوج.

في كل مرة كان ينوي أن يشير إليها بأي إشارة، لكنه يخشى أن يبدأ ما يعرف سلفًا أنه غير مكتمل.

لم أعتقد يومًا أن مجرد المرور يُوجِبُ التولّه.

عَقّ نفسَه في أمر الاستغناء، فهي إن كانت مستحيلة، فلتظل أملًا يخفف عبء الحياة الذي يمضي فيه بغير رغبة حقيقية. بدأ في عينيها من جديد.. ظلّ في محله وقتا أطول.. ربما تمرّ.

اشترى أحذية جديدة لعلها تعجب بأي شكل فتسأل مجرد سؤال، مجرد سماع الصوت ليدرك أنها حقيقية.. زبائن كثيرة سألت واشترت، لكنه كان دائمًا في انتظارها هي.. انطلقت الروح من إسارها، أحياه الأمل.

"في فترة الانتظار المشتعل، دخلت صاحبتها ولم تدخل هي. سألت عن أحد الأحذية.. امتلكت الشجاعة لأحدثها عنها.. فاجأتها وفاجأت نفسي وسألت. أهي مرتبطة؟ قالت: لا.. ولكنها

من ذوات الأحلام.. وتعشق العصافير".

أوحت له فلسفته الشخصية إنها تنظر لأعلى.. ربما لن تعبأ بتاجر الأحذية.. لكن نظرة عينيها المليئة بالأسرار والشغف كانت أقوى من فلسفته. طلب من صديقتها أن تخبرها عنه وعن رغبته الحقيقية في الارتباط بها.. انتظر الرد.

مرت به كل الدوائر غير المكتملة.. ترى ماذا ستقول عاشقة العصافير؟

في اليوم التالي كان وجلًا خائفًا.. لكنه كان الجمعة.. إجازة الجامعة. لن تمرَّ هي ولا صاحبتها.. لكنه كان قد وطَّن نفسه هذه المرة على استبقاء الأمل بكل قوة.. إنه يوم آخر من التمني والمساحة الكافية للدائرة أن تحدد مسارها.

"لكنها قالت "لا". هكذا قالت صاحبتها مقتضبة الحديث ومضت.. تركته جالسًا وصامتًا.. جالس الروح والقلب.. كيف تسنّى لها بكلمة واحدة أن تنفي كل هذه الحياة المحتملة.

كيف أغلقت الدائرة بهذا الحسم وهي التي أوحت ورسمت خطّها الأول، أتعابثني الأماني؟ لماذا ظهرت في حياتي! وفي هذا الوقت.. وماذا كانت نظرتها! لماذا تركت المساحة للحلم؟".

رقّت النغمة وزرّ حاجبيه واغرورقت عيناه.

"راقبت الناس من خلف الفاترينة، رأيتهم في رواحهم ومجيئهم أشكالًا شتى من الموديلات والألوان.

دائمًا بغير حقيقتهم، كرهت تكلفهم وعشقت بساطتهم، تمنيت لو أصفّهم وأخرج لهم من خلف الفاترينة.. أردت أن أقول لهم:

توقفوا للحظة، أعيدوا النظر في حياتكم، أعيدوا ترتيب القيم والجدارة وأساليب التقييم، أنظروا إلى جوهر جلدتكم لعلكم إن تخلصتم من هذه الأسمال الظاهرة تكونوا أفضل وتدركوا الحقائق، ولعلكم تدركون أن بائعي الأحذية ربما يكونون أسمى

من وضعهم تحت أقدامكم، لا بد أن...".
- لا بد أن تغير تسريحة شعرك،
أزعجته المقاطعة.. كان يتوقع استماعًا أفضل. استأنفت:
لا بد للحلّاق يا سيدي أن يحدد الجهة قبل بدء الحلاقة، هل تعلم أن معظم الأطفال يغيرون الحلّاق الذي كانوا يذهبون إليه مع أبيهم في الصغر.
- ما علاقة هذا بما أقول؟.
- هي نفس العلاقة بين ما تقول وبين الألم الذي تعانيه.. بعيدة.
صمت مستوضحًا.. كانت الحلاقة قد انتهت ولا بد من تنظيف السرفيس وكنس أرضية المحل.
كان يريد أن يكمل الحكاية وأن يرى الدهشة في عيوني لكنني لم أكن مندهشًا.. أحسّ بسوء الأدب وأحسستُ برغبة في المواجهة.. صمتَ متكدرًا فنطقتُ غاضبًا:
- ماذا تريد أن أقول لك، أنت إنسان تعس، ما الفخر في هذا؟ حياتك أيها الزبون رائعة، أبوك مات وأمك، كل الناس تموت، تلك تصاريف القدر، تسري على الإنسان والجبال والنمل والشجر.. تركت خطيبتك التي لم تكن تحبها، والتي رَحَبت حين طلبت ذلك، هل كنت تريدها أن تركع ممسكة بركبتيك؟ هل تظن أن أحدهم تزوج من أول "طلعة؟"، حصلت على مؤهل كبير وتجارتك رائعة، ولديك الوقت لكي تنمو.. أدرك أنت الحقيقة، انظر لهذه المرآة وقل الحمد لله.. ألم تعد قادرًا أن تعد أفراد أسراب الحمام في السحاب؟ هل تداخل الحمام؟ لم تعد عاشقة العصافير تمر؟ هل تريد أن أخبرك عن المآسي؟ عن طفل محبط ينتظر غسيل كليتيه؟ عن طفلة كانت كالحلم، منحت رقتها للعالم وضيعها أبوان لا يبحثان إلا عمن يكون

مسؤولًا عن درج المحل؟ عن فتى عيي العقل والحظ والحياة أعيا السادومي رجولته للأبد، في بلاد يعارك الرجال فيها حرقة الشمس ويغزون الجبال وينكرون على الرجال أن يحلقوا الشوارب؟ كل مآسيك الكبيرة لا تساوي حزنه على بدلة الكراتيه التي احتضنها ليلة واحدة.. عن فتاة باعها أبوها ليضمنَ لها مساحة لتمدَّ قدميها وهي نائمة؟ عن شريف الذي مات دون أن يدرك أنه بالأساس عاش؟ هل احترق ابن لك مجانًا في ليلة حنة ليست سوى حماقة؟ عن...".

ألقى عشرة جنيهات على السرفيس ومضى من غير أن يلقي السلام...

وفقدت زبونًا.

*****

محمود عبد السلام

هل أخبرك الموت سرّه؟ هل بادلك حرارة الاستقبال؟

أتظن وقع خطواته مُتَفقٌ عليه مسبقًا؟ عفوًا، إنه ليس عقدًا مكتوبًا ولا طريقًا مألوفًا، لن تبادلك تلك اللحظة البساطة، لن تبادلك الإيقاع.. إنها لا تلتزم بنفس القواعد.

لم يمت معظم الكوميديانات سعداء. لعل الله جازاهم بما أضحكوا خيرًا.. لكن الموت لم يكن "كوميديان" قط. خِدمتُك للموتى لم تكن خدمة للموت. للأسف، لا يقبل الرّشَا. ألهذا احتويت الطفل حسن؟ هذا الذي ليس كالأطفال!

لكي تعرف حياة عم محمود، لا تتبعها في شخصه، بل في حياة الآخرين. ليس غريبًا أبدًا أن يكون الأسطى محمود منهمكًا جدًا في "طلبية شغل مستعجلة"، ويجيئه أحدهم ليطلبه في مشوار، فيترك ما في يديه فورًا، وفورًا هنا تعني بالفعل فورًا، ويذهب معه.

أما لكي تعرف موته، فلا بدّ أن تتبعه في محاولته تقديم عمره قربانًا لتلك اللحظة.

كلما مات رجلٌ في شارعنا توجّه أحدهم أُتوماتيكيًا إليه.

يُحسن الغُسل ولفَّ الكفن ويعرف كيف تُستخرج التصاريح ويوزّع الأدوار.. يجرؤ دون الجميع أن يكون في صدارة المواقف؛ هو دائمًا أول من ينزل التربة، يشم الرائحة العطنة الغائرة، يتفقد الجثث القديمة، أين صاروا في هذه الهوَّة السحيقة، يتودد للقبر المظلم، يصاحب الموت للنهاية.. يريد أن يراه أو يتمثله لكن هيهات! إنه في كل مرة يظل أول مرة، رغم تكراره بعدد البشر. ظل سرًا مستغلقًا عليه.

سوف يخبرك الموت سره، لكن في اللحظة الأخيرة، حيث لا يسمعه سواك. ستعرف عندها أنه لم يميز في لحظة

القبض الحالكة بين الجبابرة القياصرة والنجارين البسطاء الذين ذهبوا في لحظاته الأسطورية مع من ذهبوا.

سرادق العزاء حماقة كبرى.. تركناه في آخر العالم تحت التراب ثمَّ نحن مشغولون بطقس روتيني أحمق بعيد كل البعد عن الحقيقة.

في شبابه، كانت متعته الانطلاق بالفسبا أمام القطار، قبل أن يمر بلحظة.. في لحظة الخطر تمامًا، ينطلق مُحنيًا رأسه، لحظة لا يخطئها، يسكر فيها بريح القطار، يغمره الشوق، لا الخوف؛ كأنما يطير في السحاب بغير أجنحة، يمرَّ في المجال الأسطوري الصامت بين الحياة والموت، في المنطقة المقدسة التي لم يطأها بشر ثمَّ يعود. لم يصحب في هذه الرحلة لاحقًا غير الطفل حسن، هذا الذي تميَّز عن كل أطفال الحي بجسارة صحبته، وبنظرة عين نادرة، فيها ضحكة مستهينة بالحياة.

هل كان يدل الموت كيف يريد للقاء أن يكون؟ هل كان يدعوه أن يمرّ به وهو يهزل؟ يخطفه في لحظة، دون أن يشغل لقاؤهما في الزمن برهة ودون أن يستغرق التعارف أي وقت.

كان حزينًا جدًا حين ألجأه ضيق الحال إلى بيع الفسبا.

قال للمشتري: هييجي يوم واشتريها منك تاني.. ربنا يعدِّل الحال.

عرض عليه الرجل جادًا أن يأخذها هي والفلوس؛ لكنه قال له: "حلال عليك".

رأى في عينيّ حسن دمعة يحاول أن يداريها، أوصاه ألا يحزن "الدمع ليس قادرًا على منحك فسبا".

يوم مات صبيه صالح غرقًا، كان هو دون أهله من تسلمه من المشرحة، ويوم فرمت سيارة رأس الأسطى سَمَاحة الميكانيكي، كان هو من جَمَعَ أشلاءه من الأرض قطعًا وفتاتًا

ملتصقًا بالأسفلت، ثمَّ أخبر أهله أنه في المشرحة.. منعهم عن رؤيته لكيلا يفقد الوجه ذكرى تورده.
"مات وخلاص.. هتطلعوه ليه؟ إكرام الميت دفنه".
احترقت شقة بالطابق الثاني وبداخلها ثلاثة أطفال لم يتعد أكبرهم السابعة.. الأب في الكويت والأم في العمل.. الناس تحت العمارة يشاهدون الدّخان ويسمعون صراخ الأطفال لكنهم بلا حيلة؛ أغلقت الأم بالمفتاح بابًا كان أشدّ من الحديد أمام أكتاف الرجال..
بينما كان الناس يناقشون الاتصال بالمطافئ والشرطة، كان قد تسلق المواسير كالقط، ثمَّ نادى أحمد العجلاتي، الضخم المغوار بشارعنا، الذي استطاع وحده قبل عامين ضرب أربعة أشقياء معروفين بجبروتهم؛ تحرشوا بفتاة أمام محله فصار من يومها أسطورة.
بدأ الأسطى محمود في إلقاء العيال واحدًا بعد الآخر، وأحمد العجلاتي يتلقاهم على مساحة صدره الشاسعة ثمَّ يربت عليهم ويمنحهم قبلة اطمئنان.. صرخ الأسطى محمود من أعلى:
"مش وقت بوس يا عم أحمد، الدّخَان عَمَانِي".
جلجلت ضحكة حسن وهو يناديه بفخر بين أطفال الحي، يشجعه ويباهيهم به.. وأخذ يصفق حين نزل كاللص على المواسير...
وجه له الضابط تهمة اقتحام شقة في غياب صاحبها.
نظر إليه وحكّ رقبته بأظافره وضمّ تضاريس وجهه وقال:
"اعمل اللي انت عايزه، بس سيبني دلوقتي عشان عايز أكح".
يُحكى أنه عندما ماتت أمه، نادى أخاه الأكبر الذي يبكيها بحرقة وكان كلاهما كبيرًا يعول أسرة من أبناء وزوجة وقال له:

"النسوان في الأوضه اللي جوه.. خش عيَّط معاهم".
لم يدرِ أخوه وقتها، أيغالب الدموع أم يغالب الحرج.
يكره أن يأكل وحده، يعشق اللمة في الطعام ويعشق "ليّة" الخروف بالتحديد:

- هتاكل معانا؟
- هتاكلوا إيه؟
- هناخد ليّة الخروف من أم أحمد ونجيب كيلو كبده بلدي ونعملها ببصل وفلفل.. كل واحد سبعه جنيه وليِّة الخروف من عند أم أحمد ببلاش.

انقطع حماس "صابر بيضه" حين وصل الكلام إلى الجنيهات السبعة. تقوقع وذهب الى محله. وحين ملأت رائحة الليِّة الشارع وتشوقت بطنه المطحونة من زيت الطعمية اليومي عاد بطبق صغير في يده؛ وقال:

- أنا هاخد شويه "صغننين"، هادفع تلاته جنيه".

عادة لا يبتسم الأسطى محمود - ولا يبكي- لكنه اهتزّ بنقرة ضحكة داخله وقال: "ماشي".
وكعادته، "يلّم فلوس من تلاتة ثمَّ ينادي على الشارع كله".

- يا عم علي.. هات سامح وتعالى.. يا أميمة.
- أيوه يا عم محمود.
- ابعتي الواد حسن.
- كُل يا حسن، اعمل اللقمه ودن قطة.. حِتة لِيّه تقعد ف ضهرك لحد ماتكبر.. كان سعدون الرقّاء أول الجالسين وأول الآكلين والمعترضين..
- الفلفل كتير يا أسطى.
- عشان يموت الميكروبات.. انت مليان.

كان عبقريًا في اختراع القواعد المؤيدة لما يفعل.
أراد ذات يوم أن يؤم المصلين فدخل في مقدمة الصفوف،

وقال والإمام حائر:
"استقيموا يرحمكم الله"،
قال الإمام:
"الإمامة للإمام الراتب يا حج محمود".
رد الحاج محمود "إذا أقيمت الصلاة فلا كلام".
هل هذه حكمة؟ هل ألف حديثًا في لحظة؟ لا أحد يعرف.
يتحداه هاني المدرس في عشرة طاوله فيجيبه بشعر عبقري لا ندري مصدره:
"نصبوا ميدان العصا واتحنجل اللّعيب، واللي طلب اتغلب، واللي غلب لعيب".
اخترق الطفل عصام المسافة من النادي إلى عم محمود بسرعة الريح غير عابئ بكل سيارات الطريق متخطيًا كل المحلات. واتّجه إليه لاهثًا.. لم يستطع لسانه العيي الثقيل غير نطق جملة واحدة:
"أبويا مبيردش.. مش عايز يصحى".
لم يستطع أحد أن يستوضح منه شيئًا. لم يجب إلا على سؤال واحد:
- فين أختك صابحه؟
- بتصحيه.. بس مبيردش.. أبويا مش عايز يصحى.

ذهب بالجثة إلى بلده في "مغاغة" بالصعيد بعد أن أشرف الحاج رشيد بنفسه على جمع مبلغ من كل محل ووضعه في يد "صابحه" شقيقة عصام.. ليس هذا مدهشًا.. هكذا هما...
لكن المدهش أن عصام اتجه إليه دون غيره.. لماذا هو؟
"رزق"، طفل مقوس الساقين كقوسين أوشكا أن يُكَوِّنا دائرة. لا تتقبل أمه ولا تستوعب أبدًا فكرة كسر ساقيه لعلاجه. أحيانًا كنا نشعر أن الأسطى محمود خُلق من غير قلب، أو بقلب "خصوصي".. فعلها ونجح.. سرقه من الشارع وذهب

للطبيب؛ ثمَّ عاد ينبئها أن رزقًا في المستشفى.. شتمته ولعنته.. ضغط عقب السيجارة بأسنانه. أعطاها ما في جيبه لشراء عصير وطعام لرزق ثمَّ مضى...

"أيامٌ كانت تضحكنا، صارت ذكراها تُبكينا".

لم أره مهزوزًا غير يوم حسن، ذلك الطفل البهي الشجي ذو العشرة أعوام، حفيد الجارة التي تساوي في شارعنا ألف فارس.. حمله ساخنًا إلى المستشفى كأنما ليتمَّ شواؤه على يديه.

ليست مشكلة أن يموت الناس.. ولكن أن يموت طفلٌ كحسن بهذه الحماقة فكأنما هي سخرية الحماقة نفسها.

كان يمكن أن يكون زفافًا كأي زفاف.. لكن ليلة الحنة لا بد فيها من الضجيج والزحام والحماقات والصياح والبانجو والحشيش والمَزّة وصخب الـ "دي جي".

ليست لدي أي رغبة أن أحكي كيف مات حسن في طقوس تافهة لليلة حنة. فليقصها السارد الذي يحدثكم...

بين الرمل والنشارة والجاز والبنزين والرقص البائد وصخب الصوت المقيت، احترق الطفل البَهيُ الذي استأذن أمه أن يشاهد الاحتفال. تسرب خط نار إليه واشتعلت ملابسه فساحت فوق بشرته الندية من العرق.. وقف مبهوتًا ثمَّ سقط.. بهت الأطفال حوله. انطلق نحوه عم محمود كالمجنون.. لم يحاول أن يطفئه بيديه فقط، ألقاه على الأرض ثمَّ ألقى نفسه فوقه يضربه بكفيه ويحتويه بجسده ويتحرك به في كل اتجاه وهو يعوي بصوت لا مثيل له، ثمَّ رفعه وعدا به.. خرجت أمه خلفهما بين الجنون والظنون.

تمنَّى وهو يجري به أن يعيره الله "الفسبا" للحظة، استجداه أن يهبَ من عمره للطفل الذي اختلطت رائحة جسده المحروق بدموعه وصمت ابتهالاته.. لكن الله في سمائه كان قد

قرر أن يبعث هذا الطفل عصفورًا بين أشجار الجنة.

في شدة الألم كان حسن يبحث في عينيه عن أمل، لكنه اندهش حين رأى دموع الأسطى محمود تنهمر فتغمر وجهه الصغير.. رفع يديه الصغيرتين يمسح وجهه، ولما التقت نظرة الطفل بعينيه ثبتت إلى الأبد.

*****

يريد أن يروح واقفًا دون احتياج لأحد.. لا يستوعب العيال احتياج آبائهم.. لم يُجبَلوا على هذه الفطرة.. عطاؤنا محبة وعطاؤهم اختيار.. لا يريد أن يرقد كما رقد صاحبه الحاج رشيد، هذا الذي كان كالجبال الشاهقات والمجد الأشم ثمَّ راح يستجديهم كيلو اللبن والعيش والجبنة البيضاء.. راوغوه وهم يتمرغون في خيره.

اتصال هاتفي من زوجة الحاج رشيد تريده دون غيره:

"والنبي ياسطى محمود، قل لهم يبعتوا مَروحة وحتة جبنه بس.. عندهم التكييف.. الراجل مفرفر".

هل تتحدث عن الحاج رشيد أم أنه في حلم؟!

في شبابهما في الورشة، كان هو "الكوماندة". لا يثق صاحب الورشة إلا به.. يطيعه الأسطوات الكبار.. أول من يصل الورشة وآخر من يذهب منها، له اليد العليا في التصميم والتصنيع والتحميل ومقابلة العميل.. كلمته واحدة.. حاسم كالسيف.

عندما أصدر قرارًا بأن المُلل والنقل هدية لكل عميل تضاعف الطلب والمكسب عشرات المرات، تفوق على السوق كله وظلّ المصنع مفتوحا ثلاثة أشهر ليل نهار يعمل بكل طاقته لتغطية الطلبيات.

لم يكن يرق ولا يروق إلا ليلة الأحد ونهاره، يصبح

شخصًا آخر. تُجلجل ضحكته مع دخان الحشيش وقليل من الشراب.

اشترى الورشة ثمَّ المعرض ثمَّ المخازن. أصبح اسم الحاج رشيد مرادف الجودة والجدية.. قرر الصنايعية كلهم أن يبقوا في خدمته وقرر الأسطى محمود أن يتخذ ورشة خاصة بجواره.. لم تكن صداقتهما صداقة ورشة، بل محبة صنعتها المواقف التي لا يمر بها سوى المجالدين.

لم يكن لينهار حين مات أيمن، قرة العين الحبيبة وضحكته التي ادَّخرها من عبس السنين.. ليس إلا أن جلس قليلًا ثمَّ بقي نهارًا كاملًا وحده واستمرت الحياة.. تخلّى من يومها عن الضحك تمامًا.. أقلع عن جلسة الأحد وصار المؤذن الرسمي للمسجد.

ذهبت الأيام ومرت وأهلكه السن والمرض، سلَّم الأمر لابنيه سلمان وقاسم اللذين رأيا أن اسم أبيهما المدّوي كالطبل يغنيهما عن العمل.. لم يقع في يديهما عربون شغل إلا أنفقاه وضيعاه، ولم يكن يجدّ جدهما إلا في إقناع الزبون حتى يدفع العربون مختلفين فقط فيمن يأخذه.. يتحول طلب الزبون بعدها للشغل أو العربون إلى سلسلة من الصياح واللجاج، وقد ينتهي الأمر بضربه. ضيعا التجارة، أصبح المعرض وكرًا للومسات وراغبيهم، لكن اسم الحاج رشيد بقي شامخًا بين الناس.

- المروحة دي بكام؟
- ب ١٢٠جنيه.
- خد ٢٠ وهاديك ٢٠ كل جمعة.
- المحل كله تحت أمرك يا أسطى محمود.

عندما علم العاقّان، لم يساهما حتى في أقساط المروحة. كانت لكل منهما حياة يحسدهما عليها الكثيرون، زوجتان

فضليان وأبناء كالورود.. الحمد لله، تخطى خط وراثتهم دنس الأبوين فورثوا شرف الجد.. نسي الشارع بسهولة محمود وقاسم ومحاهما التاريخ في دورته.. ربما كان هذا سر شارعنا... ميزة شارعنا العرفان، قد يقبل التناقض لكنه يلفظ القبح، "محمود الحلواني" صاحب أروع محل (بسبوسة) في المحروسة، أمام "عم صلاح" أشهر محل مخللات.

بلغ بهما القبح، واحتقارها، ذات مرة أن دعيا مسعود الرايق ليشاهدَ زوجته ناهد يتبادلها رجلان.. ظلّ مبهوتًا صامتًا، واجه الحقيقة التي فرَّ طوال عمره منها، سافرةً كالشمس، لاهبة كنار تأكل الحشا.. ها هي التي خاصمت كل الناس فيها ولم تصدّق غير ظنك، متاحة كالكلبة. أُصيب بنزيف حاد.. سقط مغشيًا عليه؛ لم يستوعب عقله مواجهة ما كان مختبئًا منه بذلك الشكل الفج، فرّ فرارًا ميكانيكيًا إلى الغيبوبة.

بعد شهر، شهد الأسطى محمود بنفسه على طلاقها منه، وبنفسه اختار له امرأة تصونه وتتمنى رضاه.. سورية ألجأتها الحرب إلى الهرب من وطنها الذي كان واحة يفرّ إليها المتعبون.. قبلت بكل ترحاب أن ترعى ولديه.. كانت تبحث عن وطن فصارت هي وطنًا لهم.. امرأة تعتبر الزوج ظلًا لله على الأرض.

آخر ما سمعناه عن ناهد أنها تبيع الملابس المستعملة على رصيف بالعتبة وأنها صارت سمينة مثقلة الردفين، سليطة اللسان، ظاهرة العفن، تؤرخ العهر وتجتر ذاكرة الأيادي، أورثتها الآثام قبحًا في الوجه والروح.

أما هما؛ فقد صار أحدهما سجينا والآخر هاربًا.. بينما ظلت سيرة الحاج رشيد لامعة كالذهب.

الشيء الأكثر ازعاجًا للأسطى محمود أنه يعمل في

الشارع منذ أربعين عامًا، ولم يستوعب الناس أنه "قويمجي" وليس نجارًا.

ألم شديد أعلى الفخذ.. يا أهلًا وسهلًا.. أهمله.. عاوده.. تجاهله.

لم يهمله ما أهمله ولم يتجاهله ما تجاهله.. طلب منه الطبيب تحاليل للبول وتحليل وظائف كلى وفحص بالأشعة ومزرعة.

"الدكاتره بقوا بهايم.. أقول له رجلي من فوق يقول لي الكلى!".

فشل كلوي.. ظل على عناده ودخانه وعنفوانه ولم يتوقف عن العمل.. يظن أنه إن أرهق نفسه سيموت فورًا، لكن المرض أقعده في النهاية.

أعوزه المال لكنه لم يتكلم.. الألم لا يحتمل والعذاب فوق الطاقة ولم تعد هناك فسحة لادعاء الاحتمال.. عرضت أم حسن وأمها عليه مالا لكنه رفض..

"لما تدبحوا ف العيد، ابقوا ابعتوا اللِّيَّه للواد بيجو".

باع المحل لتوفير نفقات.. كان يغسل كليتيه بمستشفى المقاولين العرب حين دخل رجل لا يعرفه، تحدث معه قليلًا ثمَّ مضى.. دفع له أجر عشرين غسلة قادمة وترك له مالًا.. تقبل صدقة الغسيل وتبرع بالمال لمريض آخر.

قبل أن يموت، ذهب مع بيجو ابنه واستأجرا فسبا.. ذهبا بها إلى مزلقان أرض اللواء ومزلقان ناهيا، طافا على كل المزلقانات، بعد أن ذهبا لغسيل الكلى للمرة الأخيرة..

كانت الغسلة العشرين.. ثمَّ مات.

خلت الحلمية من عم محمود، كما خلت من الشيخ عماد وأميرة..

الخير والحق والجمال.. ذهب الذين يُعاش في أكنافهم..
قررت أن أترك صالوني.. عرضته للإيجار.

*****

صـــدر للمؤلف

حارة سر الدين الفلواتي: رواية ٢٠١٧م.

البطء: رواية ٢٠١٨م.

نصوص ذهبية: ٢٠١٨م.

سلطان: رواية للناشئة ٢٠١٩م.

كمار: رواية ٢٠٢٠م.

الفهرس

المحتوى	رقم الصفحة
إهداء	٥
استفتاح	٦
الطفل	٨
منافسة	١٢
عنب ومانجة	١٨
اليد الصغيرة	٢٤
اللولؤة	٢٨
نظرة	٣٢
العجوزة والسمكة	٣٩
ميراث اللهاث	٤٩
الثلاثة	٥٤
سليم وسامية	٦٥
وسامة	٧٨
نميمة	٨١
مطر	٨٣
الراكب الأخير	٨٩

المحضر	١٠٠
لحظة	١٠٧
عماد عفت	١١٣
عاشقة العصافير	١٢٠
محمود عبدالسلام	١٢٦
إصدارات المؤلف	١٢٧
الفهرس	١٣٨